أعلام الفقهاء والمحدثين

ابن حجر العسقلاني

شيخ الإسلام

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ ـ تلكس : Nasher 41245 Le ـ
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٢ ١٢ ٠٢ ٦ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٦٠٢١٣٣ /٩٦١١/ ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونثني عليه كما ينبغي أن يكون الثناء عليه، والصلاة والسلام على من بعثه الله إلينا بالهدى والنور فأقام الله به الحجة على العالمين، وهدى به إلى الصراط المستقيم.

وبعد...

نشأ ابن حجر رحمه الله مكباً على طلب العلم، وملازمة مجالسه، ثم أقبل على الحديث ورحل في طلبه لسماع الشيوخ، ولم يلبث أن علت شهرته، وشدت الرحال إليه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وقرت عينه بمصنفاته، فانتشرت في حياته، ولقيت القبول، حتى تهاداها الملوك وكتبها الأكابر، وكان فصيح اللسان، راوية للشعر، ناظماً له، إماماً في الفقه، حجة في الحديث وفنونه. ولي قضاء مصر مرات، ثم اعتزل وتفرغ للتأليف والإفادة، حتى توفي رحمه الله.

وقد صنّف الحافظ رحمه الله كتباً كثيرة تتجاوز العشرات، كلها ينم عن إمامته وفضله، وعن تواضعه وسموه. والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبـه
كامل محمد محمد عويضة
مصر المنصورة ـ عزبة الشال
ش جامع نصر الإسلام

الفصل الأول

عصر ابن حجر

١ ـ الحياة السياسية

٢ ـ الحياة العلمية

٣ ـ الحياة الاجتماعية

١ ـ الحياة السياسية في عصر ابن حجر:

بدأت الحياة السياسية في عصر الإمام الحافظ الحجة شيخ الإسلام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، واستهلت والخليفة المتوكل[١] وسلطان[٢] الديار المصرية، وهما على منارة الحكم، وتميّزت هذه الآونة بعلماء أشدّاء يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، والتشديد على تارك الصلاة، وربما وصل الحكم على تاركها بالقتل، والطواف برأسه بين الخلائق ليكون عبرة للناس، ومن العلماء من أفتى عن تاركها بعدم القتل، لأنهم لا يريدون حقناً للدماء، وفي ذلك يقول شهاب الدين بن العطاء:

أضحـــى بعـــادة يخفـــي كفـــراً ويبـــدي عناده
ولـــو تشهّـــد قـــالـــوا والله مـــاذا بعاده

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، وفي أوائل هذه السنة قام رجل من ذرية جنكيز خان يقال له سرغتمش، وكانت السلطنة يومئذ قد انتهت إلى طقتمش خان بالد شت وتركستان فبلغه ما اتفق لسلطان هراة فجمع العسكر، وقصد اللنك بسمرقند فالتقوا بين سمرقند وخنجد[٣]،

---

(١) الخليفة المتوكل المعتضد محمد بن المكتفي بن الحاكم العباسي.
(٢) سلطان الديار المصرية الأشرف شعبان بن الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون النجمي الصالحي، وهو الثاني من ملوك الترك بمصر بعد بني أيوب الأكراد.
(٣) في معجم ياقوت «بضم أوله وفتح ثانيه ونون ثم دال مهملة في الإقليم الرابع =

فكانت الكسرة أولاً على اللنك[٤]، ثم عادت على طقمش خان فانتصر اللنك، ويقال إنه كان في عسكره عابد يقال له بركة، فلما رأى اللنك الهزيمة تمسك به فصاح على عسكر طقتمش خان فانهزموا، ويحتمل أن يكون هذا من وضع بعض من يتعصب للنك، ويحتمل الصحة ليقضى الأمر المقدور «إنَّما نُمْلي لها ليزدادوا إثماً»: ولما تمت الكسرة على طقتمش خان دخل اللنك خجند، ففر أميرها وأمَّر فيها بعض جنده واستولى على بقية البلاد التي لم تكن دخلت في طاعته رهبة ورغبة، ثم دخل سمرقند فأول شيء فعله بعلي شير صاحبه الذي أعانه على مستنيبه، وقسم البلاد بينه وبينه، ولقي عاقبة غدره فقتله غيلة، ثم أوقع بمن كان بسمرقند من الذعر، وكانوا عديداً كثيراً قد أسعروا البلاد، وكان اللنك أعلم بهم من غيره لأنه كان يرافقهم كثيراً، وكان إيقاعه بهم بالتدريج بطريق المكر والخديعة والحيلة إلى أن استأصلهم، وكفى أهل البلاد شرهم، ثم لما استقرت قدمه في المملكة خطب بنت الفعل، وهو تمرخان فزوجها له، ثم توجه بعساكره الى خوارزم وجرجان فصالحوه على مال، ثم قصد هراة فنزل إليه ولد ملكها غياث الدين بالأمان، واستولى عليها، واستصحب ملكها معه إلى سمرقند فسجنه، فاستمر في سجنه إلى أن مات، ثم قصد سجستان فنازلهم فتحصنوا منه مدة، ثم طلبوا منه الأمان فأمنهم على شريطة أن يمدوه بما عندهم من السلاح، فاستكثروا له من ذلك

طولها اثنتان وتسعون درجة ونصف وعرضها سبع وثلاثون درجة وسدس وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون».

(٤) اللنك اسمه تيمور.

ليرضوه، وصار يستزيدهم فبلغوا الجهد في التقرب إليه بما قدروا عليه منه، فلما ظن أن غالب سلاحهم صار عنده وأن غالبهم صار بغير سلاح بذل فيهم السيف، وخرب المدينة حتى لم يبق بها بعد أن رحل عنها من تقوم بهم الجمعة، ولما استولى على هذه الممالك مع سعته وشدة فتكه بأهلها توارد أمراء النواحي على الدخول في طاعته، والوفادة عليهم، ومنهم أمير حسين بسرخس، وغيره فأقرهم نواباً في ممالكهم، وكذا جميع من بذل له الطاعة ابتداء، ومن راسله فعصى عليه يتعذر أن يعفو عنه، إذا قدر عليه، وكان من جملة من راسل شاه شجاع صاحب شيراز، وعراق العجم فبذل له الطاعة، وسأله المصاهرة، فزوج ابنته بابن اللنك، وهاداه وهادنه، واستمر على ذلك، ويقال إنه كان يدعو الله، ويتضرع إليه أن لا يسلط اللنك عليه، فاتفق أنه مات حتف أنفه قبل أن يتوجه اللنك إلى شيراز، ثم بعد هذه الأحداث المضنية أن اللنك قد نازل صاحب خوارزم، واستولى عليها وخربها كدأبه في غيرها من البلاد.

ومن الأحداث الجسام التي واكبت عصر بن الحجر قتل الجاي اليوسفي، وكان قد تنافر هو والسلطان الأشرف بسبب منازعة وقعت بينهما في تركة والدة السلطان، فركب الجاي واقتتل مع مماليك السلطان بسوق الخيل فكسروه، فانهزم إلى بركة الحبش، ثم رجع من وراء الجبل الأحمر إلى قبة النصر، فهرب جماعة من أصحابه إلى السلطان وخامر أينبك عليه، ثم ثار له العسكر السلطاني فهرب فساقوا خلفه إلى الخرقانية من أعمال قليوب، فرمى بنفسه في بحر النيل فغرق، ثم أطلع من بحر النيل ودفن في تربته؛ وكان أول أمره حاجباً

في أول دولة يبلغا، ثم استقر خزنداراً، ثم حبس في أيام أسندمر، ثم أفرج عنه بعد قتل أسندمر، واستقر أمير سلاح، وتزوج أم السلطان وعلت كلمته إلى أن صار هو الحاكم في الدولة كلها؛ وكان تام الشكل حسن التودد إلى العوام مع هوج فيه أدّاه إلى أن ركب على العامة بالسيف في سنة سبعين بعد المائة السابعة، فلولا أنه كان في آخر النهار لأفنى منهم خلقاً كثيراً؛ وذكر بعض خواصه أنه كان يتصدق في كل يوم اثنين وخميس بألف درهم دائماً، وكان استقراره في الأتابكية بعد منكلي بغا، فلم تطل أيامه في ذلك وقبض على جماعة من حواشيه، فقيل إن سبب مخامرته أنه كان يبيت عند السلطان ليلة الموكب فجاءه من أخبره أن السلطان يريد القبض عليه فتأخر وأرسل أحضر ثياب مبيته، فأرسل له السلطان يعاتبه فاعتذر، ثم شرع في تفرقة السلاح على أتباعه، فبلغ السلطان فأمر الأمراء بالاجتماع عنده، فلما كان السابع من المحرم ركب ألجاي بمن معه إلى الرميلة، والتقى مع أطلاب الأمراء ومماليك السلطان، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قيل إنهم التقوا أحد عشر وجهاً وقتل وجرح جماعة، وفي الآخر انهزم الجاي إلى قبة النصر، وتفرق عنه الجيش وتردد الناس من عند السلطان إليه في الصلح فلم يتم، وأرسل إليه خلعة بنيابة حماة فلم يقبل، ثم تقلل الجمع عنه إلى أن صار في خمسمائة، فخرج إليه أرغون شاه في جماعة من الخاصكية فقاتلوه فانهزم وتفرق من معه، ونُودي بالقاهرة: من أمسك مملوكاً من المماليك الجاي أخذ خلعة، فقبض على أكثرهم وصودر من كان في خدمته، واستقر أيدمر نائب طرابلس أتابك العساكر، أحضره السلطان منها بعد قتل الجاي في صفر، واستقر في

نيابة طرابلس يعقوب شاه، واستقر أقتمر عبد الغني في نيابة السلطنة بمصر.

وفي عصر شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله فتحت سيس، وكانت قد بقيت في يد الأرمن الأنصاري ـ على يد أشقتمر المارديني[1] نائب حلب، وكان قد تجهز إليها بعسكر حلب فنازلها شهرين إلى أن قلّت عندهم الأقوات، فنصب عليها المجانيق، وقدم في الكمان التركمان[2] من جميع الأصناف الأرج فيه واليورقية، وكان الذي نصب المنجنيق يقال له: المعلم خليل الغساني، وهو ممن اشتهر بالمعرفة فيه فأبلى فيهم فأحسوا بالبوار، فطلب صاحبها تكفور الأمان، وسلم القلعة، فَعَلَتْ كلمة أهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل، وجهز أشقتمر صاحب سيس وجنده إلى القاهرة، ودقت البشائر بسبب ذلك، ومدح الشعراء أشقتمر فأكثروا، فمن ذلك قول أبي بكر بن زين الدين بن الوردي:

يا سيد الأمراء فتحك سيسا
سَرَّ المسيحَ وأحزن القِسِّيسَا
وبك الإله أعزَّ دينَ محمد
وأذلّ قوماً تابعوا إبليسا

---

(١) له ترجمة في الدر الكامنة: ١/ ٣٨٩.
(٢) في كنز العلوم واللغة: «التركمان شعب من شعب الأمة التاتارية، عائش على حالة بدوية في التركستان الغربي، وبلاد الفرس وآسيا الصغرى، وأتراك الدولة العلية من هذا الشعب».

لله درك مـــــن مليـــــان حـــــازم

ضحـك الـزمـان بـه وكـان عبـوسـا

وهي طويلة. وقال جمال الدين[1] سليمان بن داود المصري عم شمس الدين محمد بن الخضر بن داود الموقع:

لقـــد أذعنـــت لــلأخــذ سيـــس وجنّتَهـــا

بيـــوم خميـــس سِـــرْ إلـــى الصبـــح

سفَحَـــت دمــاءَ المشــركيــن بسفحهــا

فســالــت بسيــف الله فــي ذلــك السفــح

وفوض الأشرف نيابة سيس ليعقوب شاه[2]، وهو أول من حكم فيها من ملوك الترك، ثم استقر عوضه في هذه السنة آقبغا عبد الله، واستقر نجم الدين بن الشهيد كاتب السر بها، ثم جعلت مملكة يرأسها وسميت «الفتوحات الجاهانية» وأضيفت إليها طرسوس وأذنة[3] وأياس وغيرها، واستقر في إمرتها شرف الدين موسى بن محمد بن شهري واستقر بها.

ومن الوقائع الجسور في عصر شيخ الإسلام ابن حجر وقوع

---

(١) في الدر الكامنة ٢/ ١٥١ ترجمة لسليمان بن داود بن يعقوب بن أبي سعيد المصري جمال الدين، وله أبيات غير هذين المذكورين، مات سنة ٧٧٨ عن خمسين سنة.

(٢) في النجوم الزاهرة: ١١/ ١٤٥، وكانت وفاته سنة ٧٧٨.

(٣) في معجم ياقوت: «أذنة ـ بفتح أوله وثانيه ونون بـوزن حسنـة ـ إلـخ».

الفتنة[1] بين أينبك وقرطاي، وذلك أن قرطاي لما استقر أتابك العساكر صاهره أينبك فعظم قدره ثم غدر أينبك بصهره وتمالأ مع جماعة من المماليك مثل بركة وبرقوق ومن انضم إليهما، ووعد كلا من هذين بإمرة طبلخانات، وأركب السلطان فحضر الأمراء إلى الإصطبل فركب قرطاي ومن معه من الأمراء كسودون الجركسي وقطلوبغا البدري ومبارك شاه الطازي وغيرهم، فأحسوا بالغلبة، فهرب قرطاي وأرسل يطلب نيابة حلب وهو بسرياقوس فأجيب إلى ذلك وذلك في أواخر صفر من سنة تسع وسبعين وسبعمائة، ثم أمسك جماعة من الأمراء الذين كانوا معه واستمر آقتمر الحنبلي نائب دمشق وآقتمر[2] عبد الغني نائب السلطنة بمصر، وأينبك أتابك العساكر ودهرداش اليوسفي رأس نوبة، وقطلوبغا أخو أينبك أمير آخور وأطلمش الأرغوني دوا داراً كبيراً، وأسكن أينبك مماليكه مدرستي حسن والأشراف، وأعطى كلاً من ولديه أحمد وأبي بكر تقدمة ألف، وكان استقرار أينبك في ثاني عشرين صفر، وأشاع العوام أن بعض الأمراء ركب على أينبك ولم يكن لذلك حقيقة، فأمر ابن الكوراني

---

(١) في الدرر: «التاج عبد الخالق القاضي».

(٢) آقتمر عبد الغني نائب السلطان كان في أول أمرة... وأما... آقتمر عبد الغني الصغير، وكان أمير عشرة في سلطنة الأشراف، ومات في رمضان سنة ٧٧٠، فالظاهر أن الترجمة الثانية داخلة في ضمن الترجمة الأولى بدليل وقوع الفاء في جواب أما الشرطية.

وفي النجوم الزاهرة ١/ ٣٠٣ دخلت سنة ٧٥٥ ونائب السلطان بمصر «آقتمر عبد الغني».

الوالي أن يسمر طائفة منهم، فيقال إنه أخرج من الحبس جماعة ممن وجب عليهم القتل فسمرهم ووسطهم بعد أن نادى عليهم: هذا جزاء من يكثر الفضول، ثم التمس من الخليفة أن يولي أحمد بن يلبغا السلطنة لأن أم أحمد كانت تحته فامتنع وقال: ما أعزل ملك بن ملك وأولى ابن أمير! فقال له: إن أحمد ما هو إلا ابن السلطان حسن فإن أمه كانت حاملاً به منه لما قتل فأخذها يلبغا ولم يشعر بذلك، فوله أحمد على فراشه، فقال الخليفة: هذا ما يثبت، فَزَبَرَهُ أينبك وغضب منه وأمر بإمساكه ونفاه إلى قوص، وقرر قريبه زكريا بن الواثق في الخلافة ثم لم يلبث إلا نصف شهر حتى جاءت الأخبار من بلاد الشام بمخامرة النواب وموافقتهم لطشتمر، وأنهم جمعوا جمعاً كبيراً، وكان اتفاقهم على ذلك في ربيع الأول، فتجهز أينبك إلى قتالهم، وخرجت مقدمته في سادس عشرين شهر ربيع الأول، وهم إخوة قطلوبغا وأحمد بن أينبك، ويلبغا الناصري ودمرداش اليوسفي وبلاط الصغير وآخرين، وأخرج معه السلطان ورضي على الخليفة المتوكل، وأعاده إلى الخلافة واستصحبه معه، وخرج بقية العسكر في ربيع الآخر، واتفق أن ذلك كان وقت وفاء النيل فتفاءل المصريون على أينبك بالكسر، فإنّه خرج في ليلة الكسر فلم يلبث الجاليش أن رجعوا في ثاني ربيع الآخر من بلبيس خوفاً من الأمراء الذين صحبتهم وكان ذلك مكيدة من يلبغا الناصري فإنه قال: يا أخي أينبك! احترز على نفسك فإن بركة ويرقوق يريدان قتلك، فلم يكذبه وفرّ في الحال. ففرّ قطلوبغا في ثلاثة أنفس إلى أخيه، ويقال إن كتب الأمراء وردت من الشام إلى من بمصر بتوبيخهم على تأمير أينبك فرجعوا إلى أنفسهم وأجابوهم

بالاعتذار وأنهم معهم، فأطلع قطلوبغا على ذلك فهرب في ثلاثة أنفس إلى أخيه ورجع العسكر وطلع السلطان إلى القلعة ثم ركب قطلقتمر العلائي والطنبغا السلطاني ليلاً ومعهما جمع كثير إلى قبة النصر في ثالث ربيع الأول فتوجه إليهما قطلوبغا في مائتي نفس فأمسكوه، وانكسر عسكره، فلما بلغ ذلك أينبك هرب فرجع الأمراء إلى الإصطبل، وتحدث قطلقتمر في المملكة في ذلك اليوم خاصة، ثم أمسك في اليوم الذي يليه لأنه كان نزع لباس الحرب فاجتمع الأمراء الذين قاموا معه وأشاروا عليه بتقرير سلطان كبير من أولاد الناصر يكون مالك أمره، فامتنع ثم طلع إليه في ذلك اليوم الأمراء وبلاط الصغير، ومن الطبلخانات برقوق وبركة، وغير هؤلاء فتكلموا مع قطلقتمر المذكور في أمر المملكة، فزاد الكلام ونقص إلى أن قبضوا عليه وأمسك معه الطنبغا السلطاني، ومبارك شاه، فأرسلوا إلى الإسكندرية، واستقل بالكلام يلبغا الناصري وغيره، وأمسك دمرداش اليوسفي وغيره، وأرسلوا الجميع إلى الإسكندرية، ولم يكن فيهم أكبر من يلبغا الناصري في ذلك الوقت. ومن الأحداث الدامية التي جرت في عصر ابن حجر رحمه الله أنَّه قد أرسل برقوق إلى تمرباي نائب حلب أن يرسل إليهم الجيوش، وجهّز عسكر دمشق إليهم أيضاً «وكان ذلك بعد أن طغى التركمان وتجمعهم بعد كسر مبارك الطازي، وقتله» ولذلك فقد توجهت عساكر دمشق، وقد استطاع التركمان أن يقضي عليهم، وتبعهم إلى الدربند وتبجحوا في ذلك، وكان التركمان لما أحسّوا بالغلبة أرسلوا منهم أربعين نفساً بالتحف والهدايا، وأظهروا الطاعة والخضوع قبل الوقعة، والتزموا بدرك سائر الطوائف فلم يقبل

منهم ذلك، وأمسكت رسلهم وأخذ ما معهم، وكبس على منازلهم، ونهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم فانتهكت محارمهم حتى كان الغلمان والأتباع يغتصبون الأبكار بغير إنكار، فلما ألح العسكر في أتباعهم رجعوا عليهم مستقتلين، فوقفوا لهم عند مضيق فقتل من العساكر عدد كثير وجرح أكثرهم ونهب ما معهم وهزموهم، فقيل كان جملة ما نهب ثلاثين ألف جمل محملة، وثلاثة عشر ألف فرس ونحو ذلك، فحمي التركمان واجتمعوا وأكمنوا لهم عند مضيق يقال له فاز الملك على شاطىء البحر بالقرب من بلدة أناس، وطريقه لا يسلكها إلا جمل واحد، فلما مروا بهم أوقعوا بهم فلم ينج منهم إلا الشارد وهلك المعظم، ويقال إن تمرباي أسر فلم يعرف فتحيل حتى أطلق وملك التركمان بلستين، واستعدوا لقصد حلب ونهبها.

ومن جملة الأخبار السياسية التي وقعت في عصر ابن حجر العسقلاني: القبض على «بيدمر» نائب دمشق، لأنه كان من جهة «بركة» فأرسل بريديا إلى الأمراء بدمشق، ورأسهم حاجب الحجاب ناصر الدين محمد بك بالقبض على نائب الشام من غير كتاب، فحضر إليه الأمراء بسبب ذلك فامتنع وظن أن ذلك من قبل الحاجب لتعصبه عليه، وتمسك بعدم وصول كتاب بالقبض عليه، فاجتمع رأي الأمراء على محاربته فاجتمعوا ووقفوا تحت القلعة، فخرج بيدمر في جماعته فاصطدموا فساعدته العامة، فأمر الحاجب من القلعة بالرمي عليهم فانهزموا. وقبض على بيدمر فقيد وسجن بالقلعة، ووصل الخبر بذلك مع سفيه في خمسة أيام، ويقال: إنه قتل بينهم في هذه الوقعة أكثر من عشرين نفساً، ثم قبض الحاجب ومن معه على جماعة اتهموا بمباطنة

بيدمر ثم أطلقوا، وقرر نائب طرابلس «منكلي بغا الأحمدي» في نيابة حلب إلى أن مات، فنقل إينال اليوسفي من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، وقبض على الأمراء الذين قاموا مع بركة، ووجد لبركة في المصطبة التي كان يقعد عليها أحياناً سبعمائة ألف دينار، ووجد له عند جمال الدين محمود وديعة تزيد على عشرين ألف دينار.

وفي سنة أربعة وثمانين وسبعمائة من شهر رمضان خلع الملك الصالح حاجي من السلطنة[1]، وكانت مدة مملكته سنة ونصفاً ونصف شهر وبويع برقوق بالسلطنة ولقب «الملك الظاهر» وكني «أبا سعيد سيف الدين»، وكان يعمل في تدبير المملكة من بعد مسك بركه إلى أن أفنى المماليك الأشرفية نفياً وقتلاً، وقرب الجراكسة وأبعد الترك. ثم طلب القضاة والعلماء والأمراء واستشارهم في أمر المملكة، وأن الأمور اضطربت لصغر سن السلطان وطمع المفسدون في الأمر، فأجمعوا على طاعته وبايعوه، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان، وخطب له بالجامع يوم الجمعة حادي عشره، وتوجه البريد

(١) ذكر في بدائع الزهور ١/ ٢٥٥ «سلطنة الملك الصالح أمير حاج» ثم أفاض في حوادث سلطنته ثم قال «فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من السنة المذكورة طلب الأتابك برقوق الخليفة على الله. فخلعوا الملك الصالح أسير حاج من السلطنة وسلطنوا الأنابكي برقوق» وفي النجوم ١١/ ٢٢١ «ذكر سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر في حوادث سنة ٧٨٤ هو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثاني من الجراكسة، إن كان الملك المظفر بيبرس الجشنكير جاركسيا، وإن كان بيبرس تركي الجنس فبرقوق هذا هو الأول من ملوك الجراكسة وهو الأصح، وبه نقول.

إلى البلاد فبويع له بدمشق في يوم الخميس سابع عشرية، وخطب له يوم الجمعة ثامن عشرية من هذا العام.

وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وفي شهر جمادي الآخرة نازل الفرنج بيروت/ في عشرين مركباً، فراسلوا نائب الشام فتقاعد عندهم واعتل باحتياجه إلى مرسوم السلطان، فقام إينال اليوسفي فنادى الغزاة في سبيل الله، فنفى معه جماعة فحال بين الفرنج وبين البحر وقتل بعضهم، ونزل إليه بقية الفرنج فكسرهم وقبض من مراكبهم ستة عشر مركباً، فسرّ المسلمون بذلك سروراً عظيماً، ولما بلغ السلطان قبل ذلك تحرك الفرنج جهز عدة أمراء لحفظ الثغور من الفرنج كرشيد ودمياط وغيرهما، فلما توجهوا إلى بيروت وكسروا بها حصلت الطمأنينة منهم؛ وممن توجه من المطوعة القاضي المالكي ومعه المغاربة، والشيخ شمس الدين القوني ومعه خلائق من المطوعة، ثم جمع القاضي الشافعي جمعاً من الفقهاء وتوجه، وكان الفرنج قد دخلوا صيداء، فوجدوا المسلمين قد نذروا بهم فأحرزوا أموالهم وأولادهم بقرية خلف الجبل، فوجد الفرنج بعض أمتعتهم فنهبوها وأخذوا ما وجدوا من زيت وصابون وأحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتداركهم المسلمون، ثم وصل النائب وانكسر الفرنج بحمد الله تعالى، ثم عاد الفرنج إلى مباهلة بيروت فطرقوها في شعبان، فتيقظ لهم أهلها فحاربوهم وراموهم، ونزل طائفة من الفرنج فوجدوا بالساحل خمسة عشر نفساً فقتلوهم، ثم قتل من الفرنج جماعة، فوصل النائب من دمشق بعد انقضاء الوقعة ورجوع الفرنج بغيظهم لم ينالوا خيراً.

هذه نبذة من الحياة السياسية في عصر ابن حجر، ولو كتبنا عن هذا العصر بتمامه ما وسعنا من المجلدات خمس أو أكثر لنستوفي العصر حقه، وسوف نوجز أيضاً في كلتا الحالتين الاجتماعية والعلمية.

٢ ـ الحياة العلمية في عصر ابن حجر:

ازدهرت الحياة العلمية في عصر ابن حجر، وظهر أثر هذا الازدهار على من أراد العلم يقتطف منه حيث شاء وأين شاء، وظهر من بين أشجار هذه الحديقة شمس الدين بن الصائغ[١] الحنفي، والذي قام بتدريس الطلاب بجامع ابن طولون عوضاً عن بهاء الدين السبكي[٢]، واستقر كمال الدين السبكي في إفتاء دار العدل عوضاً عن بهاء الدين أيضاً.

وفي هذا العصر صنفت التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام، وطارت أوراق الفتاوى إلى البلاد، وكثر العلماء، وزادت الرحلات العلمية بين البلاد، والتفّ الطلاب حول المشايخ ليأخذوا منهم، وليقرأوا عليهم، وليدوِّنوا علمهم، وألفت مؤلفات محررة، وصنّفت في القراءات مؤلفات عديدة ومفيدة.

وفتحت الأبواب للعلوم والطب والعلوم العقلية، ونشطت حركة المتصوفة من العلماء والزّهاد.

وفي عصر ابن حجر قدم الشيخ ابن خلدون من المغرب، وهو

---

(١) مات في حادي عشر شعبان سنة ٧٧٦. الدرر: ٣/ ٤٩٩.

(٢) كانت وفاته في حوادث سنة ٧٧٧. النجوم: ٧/ ١٢٤.

المؤرخ المشهور صاحب المقدمة وكتاب التاريخ. ومن علماء هذا العصر محمد بن النظام محمود، جلال الدين، إمام منكلي بغا، كان عارفاً بالفقه والأصول والعربية والنظم، وكان يعرف قديماً بابن صاحب شيراز، وحفظ الحاوي الصغير وغير ذلك.

ومن أدباء هذا العصر أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني المعروف بابن أبي حجلة، نزيل دمشق ثم القاهرة، شهاب الدين أبو العباس، مهر في الأدب، ونظم الكثير، ونشر فأجاد، وترسل ففاق، وعمل المقامات وغيرها، وكان حنفي المذهب حنبلي المعتقد، وكان كثير الحط على الاتحادية، وصنف كتاباً عارض به قصائد ابن الفارض، كلها نبوية، وكان يحط عليه لكونه لم يمدح النبي ﷺ.

٣ ـ الحياة الاجتماعية في عصر ابن حجر:

إذا كانت الحياة الاجتماعية هي القالب الذي يحدد نوعية الحياة من حلوها وبؤسها، وشقاء الناس وعذابهم، ففي عصر ابن حجر تبدّلت وتغيّرت الحياة مرات ومرات بين خير فائض ونعيم زائل، ففي سنة يزداد النيل زيادة مفرطة، ويزرع الناس، وفي ذلك يأمر السلطان أشراف الناس أن يمتازوا عن العامة بعصائب خضر على العمائم، وفُعِل ذلك في كل من مصر والشام وغيرهما. وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن جابر الأندلسي الأعمى نزيل حلب:

جعلــوا لأبنــاء الـرسـول عــلامــة
إن العــلامــة شــأن مــن لــم يشهــر

نـور النبـوة فـي كـريـم وجـوههـم
يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وقال في ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره، ومن أحسنها قول الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقي المزين وأنشد قائلاً:

أطـراف تيجـان أتـت مـن سنـدس
خضـر بـأعـلام علـى الأشـراف
والأشـرف السلطـان خصّصهـم بهـا
شـرفـاً ليفـرقهـم مـن الأطـراف

وفي سنة من السنوات وفي عصر ابن حجر قلَّت الماء عند عودة الحجاج، وجفّت الفساقي بسبب قلة ما بها من الماء، ولمّا وصلوا إلى هذه الفساقي فلم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش، ومات بعد ذلك منهم أكثر ممن قتل بالعطش.

وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة توقف النيل عن الزيادة وأبطأ الوفاء إلى أن دخل توت أول السنة القبطية ووقع الناروز[1] قبل كسر الخليج حتى قال بدر الدين بن الصاحب:

---

(١) في قطر المحيط «النيروز والنوروز ـ والأول أشهر: أول يوم من السنة الشمسية، معرب نوروز بالفارسية، ومعناه يوم جديد».

نـــاروز مصـــر بـــلا وفـــاء
يُعـــدّ صَفْعـــاً بغيـــر مـــاء

واستمر التوقف إلى تاسع توت فاجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمرو[٢] بن العاص واستسقوا، وكسر ذلك اليوم الخليج عن نقص أربعة أصابع من العادة، ثم توجهوا إلى الآثار وأخذوها إلى المقياس فأقاموا من قبل العصر إلى آخر النهار يتوسلون إلى الله تعالى ويبتهلون ويستسقون، فلم يزدد الأمر إلا شدّة، ثم نودي بصيام ثلاثة أيام، وخرجوا في ثالث ربيع الآخر إلى الصحراء مشاة، وحضر غالب الأحيان ومعظم العوام وصبيان المكاتب ونصب المنبر، فخطب عليه شهاب الدين بن القسطلاني خطيب جامع عمرو وصلى صلاة الاستسقاء ودعا وابتهل وكشف رأسه، واستغاث الناس وتضرّعوا، وكان يوماً مشهوداً.

وفي صباح هذا اليوم اجتمع العوام بالمصاحف وسألوا أن يعزلوا علاء الدين بن عرب عن الحسبة، فعزل واستقر عوضه بهاء الدين ابن المفسر، وأضيفت إليه وكالة بيت المال ونظر الكسوة، ثم عزل في أثناء السنة وأعيد علاء الدين، فاتفق وقوع أمطار كثيرة بحيث زرع الناس عليها البرسيم وكان في الصعيد أيضاً مطر غزير زرع الناس عليه

---

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية، وهو الذي فتحها، مات سنة نيف وأربعين، وقيل بعد الخمسين. تقريب التهذيب: ٢/ ٧٢.

بعض الحبوب، واتفق أيضاً زيادة النيل في سابع هاتور الموافق لنصف جمادي الأولى، واستمر أياماً، ثم نقص بعد أن بلغت الزيادة ثمانية عشر إصبعاً، وابتدأت زيادة الأسعار في الغلال والحبوب من شهر ربيع الأول وهلم جرّاً إلى أن بلغ سعر الأردب خمسين درهماً، ثم تزايد إلى الستين والسبعين، وهذا في ذلك الوقت نحو أربعة دنانير.

ومن الأخطار الفحال التي وقعت في عصر ابن حجر واقشعرت لها الأبدان : الغرق ببغداد، عندما زادت دجلة زيادة عظيمة، وتهدمت دور كثيرة حتى قيل إن جملة ما تهدّم من الدور ستون ألف دار، وتلف للناس شيء كثير بسبب ذلك، ويقال إنه لم يبق من بغداد عامر إلا قدر الثلث، ودخل الماء الجامع الكبير والمدارس، وصارت السفن في الأزقة تنقل الناس من مكان إلى مكان ثم من تل إلى تل ثم يصل الماء إليهم فيغرقهم، وجرت في بغداد بسببه خطوب كثيرة، وخلا أكثر أهلها، ثم عاد من عاد فصار لا يعرف محلته فضلاً عن داره. وفي نفس العام ورد إلى حلب سيل عظيم على حين غفلة وارتفع زيادة عن العادة فخربت بسببه دور كثيرة وخربت نواحٍ كثيرة بالرها والبيرة. وغرقت بغداد، وامتدت دجلة حتى اختلطت بالفرات وأرسلت إليها الأنهار والعيون والسحب من كل جهة حتى بقيت بغداد في وسط الماء كأنها قصعة في فلاة.

وصارت الرصافة ومشهد أحمد[١] ومشهد أبي حنيفة[٢]

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي =

وغيرهما من المشاهد والمزارات لا يوصل إليها إلا في المراكب، فصار أهل بغداد في أرغد عيش من كثرة التنزه التي حدثت بذلك، وانفتح من البساتين الأربعين الذي كان الخليفة اتخذه منتزهاً في وسط دوره فتحة على باب الأزج فتدافع أمراء بغداد في سدها ورمى ذلك بعضهم على بعض، وكان الشيخ نجم الدين التستري في تلك الأيام قد عزم على الحج في خمسين نفراً من الصوفية وقد هيأ من الزاد ما لا مزيد عليه، فاستدعى خادمه وقال: انفق على سد هذه الفتحة جميع ما معنا حتى الزاد؛ ففعل، ويقال انصرف عليها عشرة الآلاف دينار، وبلغ السلطان أويس ذلك فاستعظم همته ووعد أنه يكفيه، ثم اكترى من الملاحين على حمل رحلة وجماله ورجالته من بغداد إلى الحلة، وكان سفر الناس أجمعين في تلك السنة في المراكب، وخرجوا ولم يمض إلا خمسة أيام حتى هبت ريح عاصفة قصفت سور المدينة، ثم تزايد الماء فانكسر الجسر وغرقت غالب الدور حتى أن امرأة من الخواتين ركبت من مكانها إلى كوم من

البغدادي. الإمام الشهير صاحب «المُسند» و«الزهد» وغير ذلك. كان من كبار الحفاظ الأئمة، ومن أحبار هذه الأمة. مات ببغداد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين. طبقات الحفاظ ص/ ١٨٩.

(٢) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي الكوفي. فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأي، وقيل إنه من أبناء فارس رأى أنساً، وروى عن حماد بن أبي سليمان، وعطاء، والزهري، وخلق. مات سنة خمسين ومائة، وقيل سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثلاث. المصدر السابق: ص/ ٨٠.

الكيمان بألف دينار وتقاتل الناس، وذهبت أموالهم، وأصبح غالب الأغنياء فقراء، ثم بعد عشرين يوماً نقصت دجلة وانقطع الماء الذي يوصل بغداد من المقطع، فبقيت البلد كأنها سفينة غرقت، ثم نقص الماء فبقيت ملآنة بأهلها ودوابهم الموتى فجافت ونتنت وبقي الماء كأنه الصديد، فوقع الفناء في الناس بأنواع من الأمراض من الاستسقاء وحمى الدق، وغلت الأسعار. وكان أويس بتبريز فلما بلغه الخبر غضب على نوابه، فالتزم الوزير عن نائبه أن يعمر بغداد من خالص ماله بشرط أن يطلق الناصر العراق ثلاث سنين للزراع والمعامل، وأن لا يطالب أحد أحداً بدين ولا بصداق ولا بإجازة ولا بحق، فقبل السلطان ذلك، فشرع في ذلك ونادى: من أراد عمارة بيته يجيء يأخذ دراهم ويسكن فيه بالأجرة حتى يوفي ما يقترضه ثم يصير البيت له، وأخذ في عمارة السوق والسور. وكان أويس قد عمل العراق وشن الغارات كرهاً على بغداد في هلاكها، ثم آل أمره إلى أن خلع نفسه عن الملك لوالده حسين وأوصى، فحبس ابنه الآخر حسن لأنه كان استنابه في سلطانه، فقتل الأمراء وعصى، وأوصى لولده على بغداد وحفر له قبراً، فاتفق أن ضعف يوم الأحد ومات بعد أسبوع، وأقامت بغداد ستة أشهر لا يدخلها سفر ولا يخرج منها سفر. ومن المحن التي اختبر بها الناس انتشار الطاعون بمصر ودمشق، ومات فيه جماعة من الأعيان، ففي الشهاب بن حجي أن يعقوب الدلال بسوق الخيل أخبره أنه رأى الجن عياناً على خيل كالجراد المنتشر بأيديهم رماح في بعض أزقة الصالحية وطاعنهم وطاعنوه، وصار يتحدث بذلك ويحلف، والناس ما بين

مصدّق ومكذّب، فطعن هو ومات عن قرب، ورئي في بدنه أثر طعنات؛ قال ابن حجر: أخبرني بذلك من ولي غسله. وفي عصر شيخ الإسلام رحمه الله: كان الغلاء الشديد بحلب وطرابلس حتى بيع المكوك[1] بستمائة درهم وأكلت الكلاب وغيرها، وبيع الشيء الذي كان يباع بدرهم بأربعين درهماً، ولما فر السلطان من العقبة اضطرب الناس فانحدر القاضيان برهان الدين الشافعيّ وجار الله الحنفي إلى القدس فأقاما فيه إلى أن سكنت الفتنة ثم قدما إلى القاهرة، ورجع أكثر الرؤساء إلى القاهرة. وتوجه بهادر المشرف بمن بقي إلى مكة وأخذت خزائن السلطان فنهبت ورجع طشتمر والخليفة وتقي الدين بن ناظر الجيش، وكان سافر معهم عوضاً عن أبيه لضعفه وبدر الدين كاتب السر وبدر الدين الأخنائي قاضي الملكية والشيخ سراج الدين البلقيني، وصحبتهم حريم السلطان إلى أن دخلوا القاهرة فلما دخلوا أنكروا طشتمر ما جرى، وركب إلى قبة النصر وأراد أن يسلطن الخليفة فلم يوافق على ذلك فاقتتلوا معه فانكسر ثم أعطى النيابة بدمشق وتوجه إليها، وجددت البيعة في ثامن

---

(١) المكوك: طاس كان يشرب به، أعلاه ضيق، ووسطه واسع، وهو مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعاً ونصفاً.

وهو بكرة من المعدن أو نحوه يُلَفُّ عليها الخيط وتثبت في بيت من المعدن أو الخشب بحيث يسهل دورانها واستمداد الخيط منها، وتستعمل في مكنة الخياطة وفي نول النسج لمداخلة لحمة النسيج في سداه.

ذي القعدة للملك المنصور ثم ثار المماليك الذين أعانوا الأمراء على قتل الأشرف فطالبوهم بالنفقة التي وعدهم بها وهي على ما قيل لكل نفر خمسمائة دينار فماطلوهم فجاهروهم بالسوء فلما خشوا على أنفسهم أمروا بمصادرة المباشرين والتجار، واستمرت الأحوال على ذلك مدة من الزمن. ولكن بعد ذلك استقرت الأحوال، وزاد الرخاء بمصر، حتى بيع بدرهم واحد أربعة وعشرون رغيفاً بارداً، والقنطار الجبن الجاموسي بثلاثين درهماً، وبيع بدرهم أربعون حبة من البيض وأمثال ذلك، وفي ذلك يقول الشيخ بدر الدين ابن الصاحب:

إن بـــرقـــوق لغصـــن كعبــة فــي النـــاس أخضر

هذه نبذة مختصرة عن الحياة الاجتماعية التي عاش في ظلها شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وقد أسبقناها بنبذتين من عصره السياسي أولاً، والعلمي ثانياً.

الفصل الثاني

١ ـ نسبه واسمه

٢ ـ نشأته

٣ ـ رحلاته العلمية

٤ ـ شيوخه الذين أخذ عنهم

٥ ـ تلاميذه الذين تلقوا عنه

٦ ـ مناصبه العلمية

٧ ـ صفاته

٨ ـ مذهبه

٩ ـ مؤلفاته

١٠ ـ وفاته

١ ـ نسبه واسمه:

هو شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي[١]. وأما شهرته بابن حجر اختلفت المصادر في اعتباره اسماً أو لقباً، وإذا كان لقباً هل هو لقب أحد أجداده فطغى على العائلة كلها؟ أم أنه لقب لحرفة أو مهنة أو صناعة.

قال السخاوي: هو لقب لبعض آبائه، وهو الراجح[٢]، وذهب بعضهم إلى أنه نسبة إلى آل حجر، وهم يسكنون الجنوب الآخر على بلاد الجريد وأرضهم قابس[٣]. وتجمع عبارة المؤرخين على أصالة ابن حجر العربية وقد قال في نفسه: إنه كناني المحتد من قبيلة كنانة، وذلك كما نقل عن أبيه[٤].

٢ ـ نشأته ومولده:

ولد رحمه الله بمصر العتيقة، ثاني عشري شعبان المكرم سنة

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ: ٥/ ٣٨٠.

(٢) الضوء اللامع: ٢ ـ ٣٦.

(٣) المنهل الصافي: ١ ـ ٢٥٢ مخطوط.

(٤) المجمع المؤسس: ق ٢٤٣.

٧٧٣ هـ، ونشأ الحافظ ابن حجر يتيماً حيث مات أبوه وهو في الرابعة من عمره، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل وكانت وفاة والده في رجب من سنة ٧٧٩ هـ، فأصبح في وصاية زكي الدين أبي بكر الخروبي، وكان تاجراً كبيراً وقد اعتنى به غاية العناية فأدخله المكتب بعد أن اكتمل عمره خمس سنوات[١]، فأكمل حفظ القرآن الكريم وله تسع سنين على محمد بن عبد الرزاق السفطي. ولما بلغ الحادية عشرة من عمره سنة ٧٨٤ حج مع زكي الدين الخروبي وجاور بمكة والقدس، وهنالك اشتغل بالإعادة[٢].

وحفظ بعد رجوعه مع الخروبي إلى مصر سنة ٧٨٦ عمدة الأحكام للمقدسي، ومختصر ابن الحاجب في الأصول، وملحة الإعراب للهروي، وألفية العراقي، وألفية بن مالك، والتنبيه في فروع الشافعية للشيرازي.

وتميز بين أقرانه بسرعة الحفظ، وبلغ من أمره أن حفظ سورة مريم في يوم واحد، وصرف همته نحو ما يروم حفظه، وكان حفظه تأملاً على طريقة الأذكياء[٣]. كما قدر له أن يقرأ القرآن الكريم تجويداً على (الشهاب الخيوطي) ٨٠٧ هـ، وسمع الصحيح أيضاً من أبي الفرج عبد الرحمن بن المبارك الغزي سنة ٧٧٧ هـ.

---

(١) ابن حجر: رفع الإصر ق ـ ٣٧ أ.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر ١ ـ ٢٦١.

(٣) لحظ الألحاظ: ٣٢٦ ـ وعنوان الزمان ق ٣٦ ـ ١، والجواهر والدرر ورقة ١٧، جمان الدرر ٣ ـ أ.

وبلغ به الحرص على تحصيل العلم مبلغاً جعله يستأجر بعض الكتب ويطلب إعادتها له. واشتغل مدة بالتجارة[١] بعد موت الخروبي (٧٨٧ هـ) ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره نظر في فنون الأدب[٢].

٣ ـ رحلاته العلمية:

ارتحل ـ رحمه الله ـ إلى البلاد الشامية، والحجازية، فرحل إلى مكة وإلى دمشق، واليمن، وإلى الإسكندرية، وإلى قوص، وإلى القطيعة بالصعيد بمصر. ولقد سمع من علماء الحرمين، وبيت المقدس، ونابلس، والرملة، وغزة.

وكان أول اشتغاله: بالأدب والتاريخ، وقال الشعر الحسن وأجاد فيه، حتى قال بعض العلماء فيه: «كان شاعراً طبعاً، محدثاً صناعة، فقيهاً تكلفاً». وتمثل سنة ٧٩٣ هـ منعطفاً في حياة ابن حجر ـ حيث حبب إليه علم الحديث النبوي فأقبل عليه بكليته ـ وكان شيخه في هذا العلم زين الدين العراقي (٨٠٦ هـ) الذي لازمه عشر سنوات وأرّخ لهذه الفترة بقوله: رفع الحجاب، وفتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل، ووفق للهداية إلى سواء السبيل[١] فقرأ على مُسندي

---

(١) المنهل الصافي: ١ ـ ١١١٣.
(٢) الجواهر والدرر: ٣ ـ ١٨.
(٣) السخاوي: الجواهر والدرر ق ٢٢ أ، والذيل على رفع الإصر: ٧٩. والدكتور شاكر ابن حجر: ٩١.

القاهرة ومصر الكثير في مدة قصيرة، ووقع له سماع متصل عال لبعض الأحاديث.

وهنالك رأي لبعض الباحثين المعاصرين حيث قال: وهنا يمكن تفسير ذلك على خلاف ما ورد لدى بعض مراجع ترجمته من أن المقصود بذلك هو اندفاعه بالكلية إلى الحديث النبوي، لأنه في هذه الفترة وما يليها لم يقصر همته على الحديث النبوي ـ فقط ـ وإن جعل لتحصيله الصدارة بين العلوم والمعارف، وإنما كان الحرص على تحصيله مع الإلمام بغيره على سبيل التعمق فيها، وساق الأدلة على صحة مدعاه من قول البقاعي: فأطلق ـ ابن حجر ـ عنان عزمه بقية العلوم فأكب عليها: الفقه والنحو، والأصلين، وعلوم الأدب والمعاني والبيان وغيرهما حتى مهر فيها[١]. وله ديوان من الشعر سوف نتحدث عنه إن شاء الله.

وقول ابن فهد المكي: وجد في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى[٢].

وقد ترجم ابن حجر لنفسه في كتابه[٣] قال: لم يدخل الكتاب حتى أكمل خمس سنين، فأكمل حفظ القرآن وله تسع سنين، ثم لم يتهيأ أن يصلي بالناس التراويح إلا في سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وقد

(١) البقاعي: عنوان الزمان ق ٣٧ ـ ٣٨ ـ ١.
(٢) ابن فهد المكي: لحظ الألحاظ ٢٣٠، والتاريخ والنهج.
(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر: ١/ ٨٥.

أكمل اثنتي عشرة سنة، وكان وصية الرئيس الشهير: زكي الدين، أبو بكر بن نور الدين علي الخروبي، كبيرَ التجار بمصر قد جاوز في سنة خمس وثمانين وسبعمائة، فاستصحبه معه، إذ لم يكن له من يكلفه. وسمع في تلك السنة صحيح البخاري(٤) على مسند الحجاز: عفيف الدين النشاوي ولم يضبط سماعه، لكنه يتحقق أنه لم يسمع الجميع، بل له فيه إجازة شاملة لمروياته، وكان سماعه بقراءة الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السلاوي الدمشقي تحت سكن الخروبي في البيت الذي بباب الصفا على يمنة الخارج إلى الصفا، ويعرف ببيت عيناء، وهي الشريفة بنت الشريفة عجلان، وبالبيت المذكور شباك يطل على المسجد الحرام ويشاهد من يجلس فيه الكعبة والركن الأسود، فكان المستمع والقارىء يجلسان عند الشباك دون مصطبة تحت الشباك المذكور. وكان يجلس فيها مؤدب صاحب الترجمة ومن يدرس معه، فكان المؤدب يأمرهم عند قراءة القارىء بالإنصات إلى أن يفرغ حتى ختم الكتاب، لكن صاحب الترجمة ربما خرج لقضاء حاجة ولم يكن هناك ضابط للأسماء، والاعتماد في ذلك كان على الشيخ نجم الدين المرجاني، فإنه أعلمني بعد دهر طويل بصورة الحال فاعتمدت عليه وتوقاً به. وحفظ بعد ذلك كتباً من مختصرات العلوم، ولازم أحد أوصيائه، وهو الشيخ شمس الدين: محمد بن علي القطان المصري، فحضر دروسه، ثم حبب إليه النظر في التواريخ وهو بعد في المكتب، فعلق بذهنه شيء كثير من أحوال الرواة.

وفي غضون ذلك سمع من نجم الدين ابن رزين وصلاح الدين

(٤)

الزفتاوي وزين الدين بن الشحنة. ونظر في فنون الآداب من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. فقال الشعر ونظم المدائح النبوية والمقاطيع. ثم اجتمع بحافظ العصر: زين الدين العراقي، وذلك في شهر رمضان سنة ست وتسعين، فلازمه عشرة أعوام، وحبب إليه منه الحديث، فما انسلخت تلك السنة حتى خرج لشيخه مسند القاهرة أبي إسحاق التنوخي - المائة العشارية. وكان أول من قرأها في جمع: الحافظ أبو زرعة بن الحافظ العراقي. ثم رحل إلى الإسكندرية فسمع من مسنديها إذ ذاك، ثم حج، ودخل اليمن. فسمع بمكة والمدينة وينبع وزبيد وتعز وعدن وغيرها من البلاد والقرى.

ولقي باليمن إمام اللغة غير مدافع، مجد الدين بن الشيرازي (٧٢٩ - ٨١٦) فتناول منه بعض تصنيفه المشهور المسمى «القاموس في اللغة» ولقي جمعاً من فضلاء تلك البلاد، ثم رجع إلى القاهرة، ثم رحل إلى الشام فسمع بقطية وغزة والرملة والقدس ودمشق والصالحية. وكانت إقامته بدمشق مائة يوم، ومسموعه في تلك المدة نحو ألف جزء حديثية، منها من الكتب الكبار: المعجم الأوسط للطبراني[١]، ومعرفة الصحابة لأبي عبد الله[٢] بن منده، وأكثر مسند

(١) الطبراني الإمام العلامة الحجة بقية الحفاظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن مطير اللخمي الشامي. مسند الدنيا، وأحد فرسان هذا الشأن. صاحب «المعجم». مات لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، عن مائة عام وأكثر. البداية والنهاية: ١١/ ٢٧٠.

(٢) الإمام الحافظ المحدث الجوال محدث العصر أبو عبد الله ابن الشيخ أبي يعقوب إسحاق بن الحافظ أبي عبد الله محمد بن زكريا يحيى بن منده. مات =

أبي يعلى[٣]، وغير ذلك. ثم رجع وأكمل كتابه «تعليق التعليق» في حياة كبار مشايخه، فكتبوا عليه، ولازم الشيخ سراج الدين البلقيني إلى أن أذن له بعد إذنه: شيخه الحافظ بدر الدين العراقي. ثم أخذ في التصنيف، وأملى «الأربعين المتباينة» بالشيخونية، من سنة ثمان وثمانمائة، ثم أملى من عشاريات الصحابة نحو مائة مجلس في عدة سنين. ثم ولي درس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة، فأملى فيها، ثم قطعه لما تركها في سنة أربع عشرة وثمانمائة، وتشاغل بالتصنيف، ثم ولي مشيخة البيبرسية، ثم تدريس الشافعية بالمدرسة المؤيدية الجديدة.

٤ ـ شيوخه الذين أخذ عنهم:

اجتمع لابن حجر من الشيوخ ما لم يجتمع لأحد من أهل العصر، وكل منهم كان رأساً في فنه الذي اشتهر به. ولقد جمع الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ شيوخه وترجم لهم في كتابه (المعجم المؤسس بالمعجم المفهرس) جمع فيه أسامي شيوخه على المعجم، وقسمهم إلى قسمين: الأول: فيمن حمل عنه عن طريق الرواية، والثاني: فيمن قرأ عليه شيئاً على طريق الدراية، وقسمهم من حيث العلو في الإسناد

في ذي القعدة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. تذكرة الحفاظ: ٣/ ١٠٣١.

(١) أبو يعلى الموصلي الحافظ الثقة محدث الجزيرة أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التيمي. صاحب «المسند» الكبير. مات سنة سبع وثلاثمائة.

إلى: خمس طبقات، وذكر في ترجمة كل شيخ ما سمع منه، ليكون الفهرست لمسموعاته. وهؤلاء المشايخ نذكر منهم:

البرهان التنوخي (٨٠٠ هـ) في معرفة القراءات. والزين العرافي (٨٠٦ هـ) في معرفة الحديث ومتعلقاته. والهيثمي (٨٠٧ هـ) في حفظ المتون واستحضارها. والسراج البلقيني (٨٠٥ هـ) في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع.

وابن الملقن (٨٠٤ هـ) في فترة التصانيف. والمجد الشيرازي (٨١٧ هـ) في حفظ اللغة والاطلاع عليها. والغماري (٨٠٢ هـ) في معرفة العربية ومتعلقاتها وحفظها.

والمحب بن هشام (٧٩٩ هـ) سمع عليه: علوم الحديث لابن الصلاح وحكايات أبي علي الفقيه.

والعز بن جماعة (٨١٩ هـ) في تفننه في علوم كثيرة[١].

هذا وتولى ابن حجر التعريف بشيوخه في كثير من مصنفاته. كما أفردهم في كتابين جليلي القدر ما زالا مخطوطين هما (المجمع المؤسس للمعجم المفهرس) و(تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنشورة المسمى بالمعجم المفهرس).

وبلغ عدد شيوخه بالسماع والإجازة وبالإفادة على ما بين في خطه نحو أربعمائة وخمسين نفساً[١]. والشيوخ الذين أجازوه عموماً ترجم

---

(١) محمد كمال عز الدين: التاريخ والمنهج التاريخي ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) جمان الدرر: ١٢ ـ ٢٤.

في (المجمع المؤسس) لأكثر من ستمائة شيخ، وذكر بعضهم أن عدد شيوخه بلغ ستمائة نفس سوى من سمع منه من الأقران[٢].

٥ ـ تلاميذه الذين تلقوا عنه:

أخذ عنه: شيخ الإسلام: زكريا بن محمد الأنصاري، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، والجمال إبراهيم القلقشندي، والعز بن فهد، والبرهان البقاعي، والشرف عبد الحق السنباطي رحمهم الله، وغيرهم.

٦ ـ مناصبه العلمية:

درّس ابن حجر، وأفتى، وأملى في مجالس، وتولى مشيخة التدريس في كثير من المدارس، وولي القضاء، وصنف التصانيف النافعة، وانفرد بمعرفة فنون الحديث لا سيما رجاله وما يتعلق بهم.

فدرس: بالحسنية والمنصورية، ودرس الحديث في: البيبرسية والجمالية المستجدة، والحسنية، والزينية، والشيخونية، وفي جامع ابن طولون، والقبة المنصورية، وتولى الإسماع بالمحمودية، والفقه: بالخروبية بمصر، والشريفية الفخرية، والشيخونية، والصالحية النجمية، والصلاحية المجاورة للإمام الشافعي، والمؤيدية وولي مشيخة البيبرسية، والإفتاء بدار العدل، والخطابة بالجامع الأزهر، ثم

---

(١) فهرس الفهارس: ج.

بجامع عمرو بن العاص، وتولى خزانة المكتبة المحمودية، وعمل لها فهرستاً. كما ذكره السخاوي في: الضوء اللامع.

وقد ولي القضاء في السابع والعشرين من المحرم، سنة سبع وعشرين وثمانمائة. ثم عقد مجلس الإملاء في أوائل صفر منها إلى الآن. وقد صُرِف ابن حجر عن القضاء في ذي الحجة من سنة (٨٢٧) ثم أعيد مرة ثانية في رجب سنة (٨٢٨) وصرف سنة (٨٣٣)، ثم أعيد للمرة الثالثة في جمادي الأولى سنة (٨٣٤) وصرف في شوال سنة(٨٤٠)، ثم أعيد للمرة الرابعة في شوال سنة (٨٤١)، وصرف في المحرم سنة (٨٤٩)، ثم أعيد للمرة الخامسة سنة (٨٥٠)، وصرف في أول سنة (٨٥١)، وأعيد للمرة السادسة في ربيع الآخر سنة (٨٥٢)، ولكنه عزل نفسه في آخر جمادي الآخرة من نفس السنة، لزهد في القضاء، لكثرة ما توالى عليه من المحن والأنكاد، وقد صرح بأنه لم تبق في بدنه شعرة تقبل اسم القضاء.

وقد زادت مدته فيه على إحدى وعشرين سنة، ولكنه لم يتمتع بالحياة بعد استقالته من القضاء إلا نحو ستة أشهر.

٧ ـ صفاته:

منح الله سبحانه وتعالى الحافظ ابن حجر من الصفات الخلقية ما به صار محبوباً في الناس معظماً بينهم، فذاع صيته في الآفاق، وقصده طلاب العلم من كل مكان وأثنى عليه أهل العلم، واعترفوا له بالفضل.

فكان رحمه الله. صبيح الوجه، للقصر أقرب، ذا لحية بيضاء، وَفِيَّ الهامة، نحيف الجسم، شجي الصوت، جيد الذكاء، عظيم الحذق لمن ناظره أو حاضره، راوية للشعر وأيام من تقدمه، ومن عاصره، فصيح اللسان[1]. وقد عُرِف ابن حجر بالحفظ وكثرة الاطلاع والسماع، وبرع في الحديث وتقدم في جميع فنونه، ووصل إلى مرتبة الذهبي، وأثنى عليه شيوخه في هذا الشأن.

ذكر تلميذه البقاعي في ترجمته له: أنه رحمه الله: «أعجوبة في سرعة الفهم، في غاية الحفظ، إنه في حسن التصور له حدس يظن أنه الكشف، وفكر كأن رقته خفي اللطف، وتأمل يرفع الأستار من غوامض الأسرار، وصبر متين وجلد مبين، وقلب على نوب الأيام ثابت، وجنان من صروف الدهر غير طائش. ما رأيت أكظم منه للغيظ، بحيث أنه لا يظهر عليه الغضب إلا نادراً، ولا أجلد على ريب الزمان، يتلقاه بصبر واسع ويظهر البشاشة حتى يظن من لا خبرة له أنه سر بذلك».

يستعين على الشدائد بالصبر والصلاة، حدث أنه كان مرة مع أصحابه فوق الأهرام فرأوا أناساً قد أحاطوا بدوابهم وغلمانهم فلم يشكوا أنهم قطاع، فاشتد جزع رفقته، وأما هو فقام يصلي فكشف الأمر عن أنهم مازحون وكفاهم الله السوء[1].

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد: ٧/ ٢٧٣.

(٢) عنوان الزمان مخطوط: ١/ ١٣٦.

وقد شهد له أستاذه الحافظ العراقي بأنه أعلم بالحديث. وقد سئل العراقي أيضاً: من تخلف بعدك؟ قال: ابن حجر: ثم ابن أبو زرعة، ثم الهيثمي[٢].

وكان رحمه الله: ملازماً لقيام الليل، وسنة الضحى، ويسرد الصوم، وواظب أخيراً على صوم يوم وإفطار يوم، وكان كثير البر للفقراء وطلبة العلم[٣].

كل ذلك مع شدة تواضعه، وحلمه، وبهائه، وتحريه في مأكله، ومشربه، وملبسه، وبذله، وحسن عشرته، ومزيد مداراته، ولذيذ محاضراته ورضي أخلاقه، وميله لأهل الفضائل، واقتفائه طرق من تقدمه من الصلحاء السادة[٤].

وقال ابن تغردي بردي: وكان عفا الله عنه ذا شيبة نيرة، ووقار، وأبهة، ومهابة مع ما احتوى عليه من العقل والحلم والسكون والسياسة بالأحكام ومداراة الناس قبل أن يخاطب الناس بما يكره، بل كان يحسن لمن يسيء إليه، ويتجاوز عمن قدر عليه[٥].

ومن عاداته رحمه الله أنه خفيف المشية، خفيف الوضوء في تمام، سريع عقد النية، يعيب على من يتردد فيها، وكذا من يبالغ في إخراج

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ: ص ٣٨١.
(٢) قضاة مصر للشيخ ابن عبد القادر الطوخي مخطوط: ق ١١٦.
(٣) الضوء اللامع: ٢/ ٣٩.
(٤) المنهل الصافي: جـ ٣ ق ٨٧ أ.

الحروف بتقطيع الكلمة، لا يتأنق في مأكله ومشربه، ولا في البيت ويأكل اليسير من الطعام، لكنه كان يتقوى بالسكر وكان لا يتأنق في الرفيع من الثياب، قصير الثياب، حسن العمة، ظريف العذبة، وكذا كان لا يتأنق في ألفاظه، بل يعيب من تقعر في كلامه[1].

وفيما ذكرت من صفات لابن حجر مقنع لكل من يريد أن يعرف الرجل عن قرب، وأسوة حسنة لمن يريد العمل لا القول والجدل.

٨ ـ مذهبه:

كان ـ رحمه الله ـ شافعي المذهب، له في المذهب مؤلفات من أشهرها «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» يشتمل على أصول الأدلة الحديثة للأحكام الشرعية وله شرح الروضة، وعجب الدهر في فتاوى شهر، والعديد من الأجوبة الفقهية التي كان يرد بها على سائليه.

وكان مع ذلك مصنفاً في البحث، وقافاً عند الحق، دقيق المراقبة لله، منزهاً عن الهوى وهذا شأن العالم المدقق، المحقق المتأسي برسول الله ﷺ.

قال الجمال بن عبد الهادي في الرياض اليانعة: كان ابن حجر رحمه الله محباً للشيخ تقي الدين ابن تيمية[1]، معظماً له، جارياً في

---

(١) ملخصات من الجواهر والدرر للشيخ طاهر الجزائري ص/ ٥٦.

(٢) ابن تيمية الشيخ الإمام الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي =

أصول الدين على قاعدة المحدثين، ولهذه العلة كثير من الشافعية ينقص حقه ولا يبلغ به التعظيم منزلته كفعلهم ذلك مع ابن ناصر الدين، تساهلاً ومراعاة لجانبه كما يقع في غالب التقاريظ.

لكنه لم يكن ممن يساير ابن تيمية في مفرداته حتماً، بل فيه ما قاله: «إن الواجب على من تلبس بالعلم، وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة، أو من ألسنة مَن يوثق به من أهل النقل، فيقرر من ذلك ما ينكر فيحذر منه على قصد النصح، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء»[1]. وقد تولى أعمالاً جليلة، منها:

الإملاء: وكانت له مجالس عديدة في الأمكنة التي يحل بها: والإملاء للعلم كان يقوم مقام الإذاعة والإعلان والطباعة الآن. أملى بمصر وحلب ودمشق[2]. وتولى ـ رحمه الله ـ التدريس في مدارس عديدة، وأماكن كثيرة وباشر تدريس التفسير والوعظ والخطابة في الجامع الأزهر، والقبة المنصورية، والمدرسة الحسينية بالرملة، وغير ذلك من المدارس كما ذكرنا. وتولى القضاء كما ذكرنا وكان مصمماً على عدم دخوله فيه.

شهاب الدين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين. مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. طبقات الحفاظ ص/ ٥٢٠ ـ ٥٢١.

(١) الجواهر والدرر: ق ١٥٠ ب.

(٢) أملى ما نيف على ألف مجلس من حفظه. الذيل/ ٨٦.

وكان الحافظ ابن حجر في غنى عما في أيدي الناس ولا حاجة له في المساعدة بل هيأ الله له من المال ما يكفيه، ويساعده على قضاء حوائجه فهو ورث الغنى عن أبيه، وأمه.

يقول السخاوي: ولم يتفق له - رحمه الله - أن تنزل طالباً، ولا صوفياً في مدرسة ولا غيرها، حتى الخشابية، فإنه وإن تنزل فيها بعد موت والده فلم يقبض من معلومها شيئاً. كما قرأته بخط بعض أصحابنا، وبلغني مما يؤيد ذلك أن القاضي علم الدين قال للمباشر: «إرفع من الأسماء اسم رجلين، أحدهما يحضر ولا يطالب، والآخر لا يحضر ويطالب. وحكى ذلك للحافظ ابن حجر فقال أما الأول فأنا، فمن الثاني؟ فقيل السفطي[٣]».

وقال البقاعي عنه: «لا يأكل من هدايا الإخوان، ولا من مرتبات السلطان، وكان في السفر يشتري له من ماله ما لا يشتهي...».

وكان يتحرى في مأكله، ولم يزل يتحرى إلى أن مات، وكانت وظائفه التي يباشرها يتحرى فيها ما كان أقرب إلى الحل، فيبدأ منه، وكذا التصدق، ثم اللبس.

ولقد عاش - رحمه الله - تعلوه عزة الإيمان، وشهامة العلم، يدور مع الحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) الجواهر والدرر/ ١٩٠ أ.

٩ ـ مؤلفاته:

سردها السخاوي في كتابه وقال[1]: كان ابتداؤه في التصنيف في حدود سنة ست وتسعين وسبعمائة، ومن تصانيفه ما كمل قبل الممات، ومنها ما بقي في المسودات، ومنها ما شرع فيه فكاد، ومنها ما سطر، ومنها ما صلح أن يدخل تحت الإعداد، وهذا إيرادها على ترتيب اخترته، وتقريب ابتكرته، وقد جمع هو أسماء معظمها في كراسة افتتحها على سبيل التواضع والهضم لنفسه بقوله: وأكثر ذلك ـ يعني تصانيفه ـ مما لا يساوي نسخة لغيري، لكن جري القلم بذلك.

وقد سمعته يقول: لست راضياً عن شيء من تصانيفي لأني عملتها في ابتداء الأمر ثم لم يتهيأ لي من يحررها معي، سوى شرح البخاري، والمشتبه، والتهذيب، ولسان الميزان. بل كان يقول فيه: لو استقبلت من امرىء ما استدبرت لم أتقيد بالذهبي[2]، ولجعلته كتاباً مبتكراً. ثم قال: وأما سائر المجموعات فهي كثيرة العدد، واهية العدد، ضعيفة القوى. وقد تصححت أنا هذه الورقات فوجدته يقول أحياناً عقيب الكتاب وموضوعه استوفيت تبييضه، أو قد بيضته، أو بيض اليسير من أوائله، أو مسودة.

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٣٨١.

(٢) الذهبي، الإمام الحافظ، محدث العصر، وخاتمة الحفاظ، ومؤرخ الإسلام، وفرد الدهر، شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان الدمشقي المقرىء. توفي يوم الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق. البدر الطالع للشوكاني: ٢/ ١١٠.

ومن مؤلفاته:

فتح الباري، شرح صحيح البخاري.

تهذيب التهذيب، القول المسدد في الذب عن المسند.

لسان الميزان، تخريج أحاديث الرافعي، والهداية، تعجيل المنفعة، والزمخشري.

تقريب التهذيب، الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف، الإصابة في تمييز الصحابة.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

رفع الإصر

تبصير المنتسب بتحرير المشتبه.

تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس.

تعليق التعليق. ونكت ابن الصلاح

إتحاف المهرة. المقترب في المضطرب

شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر.

الأربعون في ردع المجرم عن سب المسلم.

الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية.

توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس.

ديوان في الشعر. وله أبناء الغمر بأبناء العمر. وله غير ذلك من المؤلفات، وسوء سرد فصلين خاصين أولهما خاص بمؤلفاته والكلام عليها، وثانيهما عن أشعاره، إن شاء الله تعالى.

١٠ ـ وفاته:

أصيب بإسهال ورمي دم عام ٨٥٢ هـ، وبقي بهذه العلة إلى أن

توفي بعد صلاة العشاء الآخرة، من ليلة السبت، المسفرة عن اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٨٥٢ هـ.

وكان ممن حمل نعشه السلطان فمن دونه، فدفن بتربة بني الخروبي، بالقرب من الإمام الليث[١] بن سعد، مقابل جامع الديلمي[٢].

ولقد ذهبتُ ذات مرة لزيارة هذه المقابر بسفح جبل المقطم بالقاهرة، فوجدتُ قبر الإمام الشافعي وبجواره نخبة من العلماء والنحاة، ومنهم وكيع[٣] بن الجرّاح شيخ الإمام الشافعي، والذي شكى إليه الإمام الشافعي سوء حفظه:

شكـــوت إلـــى وكيـــع ســـوء حفظـــي
فـــأرشـــدنـــي إلـــى تـــرك المعـــاصـــي

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري. أحد الأعلام. روى عن الزهري، وعطاء، ونافع، وخلق. وعن ابنه شعيب، وكاتبه أبو صالح، وابن المبارك، وقتيبة، وخلق آخرهم. مات في شعبان سنة خمس وسبعين ومائة. تاريخ بغداد: ١٣/٣.

(٢) الحافظ شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، أبو شجاع المحدث الحافظ، المؤرخ، الثقة، الثبت، توفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة. الوافي بالوفيات: ٤/٤٧.

(٣) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، بضم الراء وهمزة ثم مهملة، أبو سفيان الكوفي، ثقة حافظ عابد، مات في آخر سنة ست أو أول سنة سبع وتسعين، وله سبعون سنة: تقريب التهذيب: ٢/٣٣١.

وقـــال أعلـــم بـــأن العلـــم نـــورٌ
ونـــور الله لا يـــؤتـــى لعـــاصـــي

وبجوارهم مقبرة ابن عقيل[٤] النحوي، ونخبة كبيرة من ذوي الفضل، الذين تبيّض من علمهم الغلمان.

ولقد شهد الشهاب المنصوري الجنازة، فلما وصل إلى المصلى أمطرت السماء على النعش فأنشد الشهاب مرتجلاً:

قـــد بكـــت السحـــب علـــى قـــاضـــي القضـــاة بالمطر
وانهـــدم الـــركـــن الـــذي كـــان مشيـــداً مـــن حجر

ولقد رثته جماعة من الفضلاء، والأدباء النبلاء، منهم الأديب شهاب الدين أبو الطيب أحمد بن الحجازي الأنصاري فكان مما قال:

هـــو شيـــخ الإســـلام المعظـــم قـــدره
مـــن كـــان أوحـــد عصـــره والنـــادرة
قـــاضـــي القضـــاة العسقـــلانـــي الـــذي
لـــم تـــرفـــع الـــدنيـــا خصيمـــاً ينـــاظـــره
لا تعجبـــوا لعلـــوه فـــأبـــوه مـــن
قيـــل علـــي فـــي الـــدُّنَـــا والآخـــره
هـــو كيميـــاء العلـــم كـــم مـــن طـــالـــب
بـــالكســـر جـــاء لـــه فـــأضحـــى جـــابـــره

---

(١) ابن عقيل الإمام الحجة الثبت أبو عبد الله محمد جمال الدين ابن مالك، صاحب «شرح الألفية». مات سنة اثنتين وسبعين وستمائة.

لهفــي عليــه خــزانــة العلــم التــي
كـانـت بهـا كـل الأفـاضـل مـاهـرة

وهكذا ترك الإمام دنيا الناس، لكي يقابل رب الناس الذي نرجو منه أن يغفر للإمام، ويرحمه، وينور عليه قبره إلى أن تقوم الساعة، وهو على ما يشاء قدير.

الفصل الثالث

١ ـ تعليق على مؤلفات ابن حجر

٢ ـ ذيوع مصنفاته

٣ ـ آراء معاصريه في مصنفاته وعلمه

١ ـ تعليق على مؤلفات ابن حجر:

تزيد مصنفات ابن حجر على مائة وخمسين مصنفاً، وهي من حيث مادتها تعالج مواضيع متعددة ومتنوعة.

ومن حيث كمالها، فإن منها ما كمل وبيض، أو كمل وشرع في تبيضه، أو كمل وهو في المسودة، ومنها ما لم يكمل إلا أنه كتب منه قدر النصف أو يزيد، ومنها ما شرع في تأليفه.

أما من حيث سعتها: فمنها ما يقع في مجلدات، ومنها ما يقع في أجزاء أو كراريس أو أسفار، وبعضها عبارة عن إجابة مستفيضة لسؤال، أو نكت، أو فوائد، أو تعليقات هي في الواقع حصيلة لعقليته النقدية دوّنها وهو يطالع كتب الذين سبقوه من العلماء[١].

أما من حيث إضافتها وابتكارها: فمنها المبتكر، ومنها المختصرات، ومنها الشروح، ومنها التخريجات، ومنها التعليق والملتقطات، ومنها الكتب التي قام بترتيبها وتهذيبها.

٢ ـ ذيوع مصنفاته:

تهافت الناس على قراءة مصنفاته في حياته وحفظ بعضها كبلوغ المرام، ونخبة الفكر وشرحه نزهة النظر، وانتشرت في الآفاق، وقرأ

---

(١) الدكتور شاكر: ابن حجر ص ٢٥٨.

عليه الكثيرون ما بيض منها في حياته، وربما قرىء بعضها أكثر من مرتين وثلاث وفوق ذلك[٢].

تهادت كتبه الملوك، فلقد طلب (شاه رخ) سنة ٨٣٠ هـ ما كمل من شرح البخاري من الملك الأشرف ثم طلب بقيته سنة ٨٣٧ هـ كما طلبه سلطان المغرب وبيع بثلاثمائة دينار[١].

وتعتبر مصنفاته ذات أهمية كبيرة لدراسة العلوم الإسلامية بل دراسة الإسلام.

٣ ـ آراء معاصريه في مصنفاته وعلمه:

قال السخاوي في هذا الشأن سمعت بعض المعتبرين يقول: إنه ـ أي ابن حجر ـ لم يكن يغتاب أحداً بلفظه فكتب بخطه ما يكون مضبوطاً عنه محفوظاً له، والأعمال بالنيات، فأرجو أن يكون مقصده في ذلك جميلاً . . . وقيل: كان قلم ابن حجر سيئاً في مثالب الناس، ولسانه حسناً وليته عكس ليبقى الحسن[٢].

والحقيقة التي لا مراء فيها أنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذوي فضل إلا وفيه عيب؟

ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله[٣].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٦٠.

(٢) الجواهر والدرر: ١٦١، والضوء اللامع ٢ ـ ٣٨، والذيل ٨٦.

(٣) كشف الظنون: ٢ ـ ٦١٨، والجواهر: ١٥٧.

(٤) صفة الصفوة: ٢ ـ ٤٥، والبداية والنهاية: ٩ ـ ١٠٠.

وقال ابن فهد في مؤلفات الحافظ ابن حجر: ألف التآليف المفيدة المليحة الجليلة السائرة الشاهدة له بكل فضله الدالة على غزارة فوائده والمعربة عن حسن مقاصده، جمع فيها فأوعى، وفاق أقرانه جنساً ونوعاً، التي تشنف بسماعها الأسماع وانعقد على كمالها لسان الإجماع، فرزق فيها الحظ السامي عن اللمس، وسارت بها الركبان سير الشمس[٤].

هذا: وزادت تصانيفه التي معظمها في فنون الحديث، ومنها ما تفوق في الأدب والفقه وأصوله، وأصول الدين وغير ذلك على مائة وخمسين تصنيفاً، ورزق فيها من المقصد والقبول[١].

وسوف نتحدث لما تيسر لنا من هذه المؤلفات، ولنبدأ «بفتح الباري» وهو شرح صحيح البخاري.

١ ـ فتح الباري، بشرح صحيح البخاري

يقول ابن حجر رحمه الله «عن فتح الباري»: كنت عزمت على أن أسوق حديث الباب بلفظه قبل شرحه، ثم رأيت ذلك مما يطول به الكتاب جداً، فسلكت الآن فيه طريقاً وسطى أرجو نفعها، كافلة بما اطلعت عليه من ذلك، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وربما أعدت شيئاً مما تقدم في المقدمة[١] لمعنى يقتضيه، إما لبعد العهد به أو لغير

---

(١) لحظ الألحاظ: ص ٢٣٢.

(٢) الذيل على رفع الإصر: ص ٨٠.

(٣) مقدمة هدي الساري.

ذلك، ولكن اعتمادي غالباً على الحوالة عليها، وسميته «فتح الباري بشرح صحيح البخاري».

وقد رأيت أن أبدأ الشرح بإسنادي إلى الأصل بالسماع أو بالإجازة، وأن أسوقها على نمط مخترع، فإني سمعت بعض الفضلاء يقول: الأسانيد أنساب الكتب، فأحببت أن أسوق هذه الأسانيد مساق الأنساب.

وقد ساق ابن حجر أسانيده في مقدمة «فتح الباري»، ورأينا تعدد طرقه في الوصول إلى الإمام البخاري، رحمهما الله.

وقد شرح ابن حجر «صحيح البخاري» ووضّح في خلال شرحه فوائد جامعة نذكر منها:

الأول: في بيان السبب الباعث للبخاري في تصنيف الصحيح.

الثاني: في بيان موضوعه والكشف عن مغزاه فيه، والكلام على تحقيق شروطه، وتقرير كونه من أصح الكتب المصنفة في الحديث النبوي، ويلتحق به الكلام على تراجمه البديعة المنال المنيعة المثال التي انفرد بتدقيقه فيها عن نظرائه واشتهر بتحقيقه لها عن قرنائه.

الثالث: في بيان الحكمة في تقطيعه للحديث واختصاره، وفائدة إعادته للحديث وتكراره.

الرابع: في بيان السبب في إيراده الأحاديث المعلقة، والآثار الموقوفة، مع أنها تباين أصل موضوع الكتاب وألحقت في سياق

الأحاديث المرفوعة المعلقة والإشارة لمن وصلها على سبيل الاختصار.

الخامس: في ضبط الغريب الواقع في متونه مرتباً له على حروف المعجم، بألخص عبارة وأخلص إشارة، لتسهل مراجعته ويخفف تكراره.

السادس: في ضبط الأسماء المشكلة التي فيه وكذا الكنى والأنساب وهي على قسمين. الأول: المؤتلفة والمختلفة الواقعة فيه حيث تدخل تحت ضابط كلي لتسهيل مراجعتها ويخف تكرارها، وما عدا ذلك فيذكر في الأصل. والثاني: المفردات من ذلك.

السابع: في تعريف شيوخه الذين أهمل نسبهم إذا كانت يكثر اشتراكها «كمحمد» لا من يقل اشتراكه «كمسدد» وفيه الكلام على جميع ما فيه من مهمل ومبهم على سياق الكتاب مختصراً.

الثامن: في سياق الأحاديث التي انتقدها عليه حافظ عصره أبو الحسن الدارقطني(١) وغيره من النقاد والجواب عنها حديثاً، وإيضاح أنه ليس فيها ما يخل بشرطه الذي حققناه.

التاسع: في سياق أسماء جميع من طعن فيه من رجاله على ترتيب

---

(١) الدراقطني الإمام شيخ الإسلام حافظ الزمان أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي. الحافظ الشهير صاحب «السنن» و «العلل» وغير ذلك. مات ثامن ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. شذرات الذهب: ١١٦/٣.

الحروف، والجواب على ذلك الطعن بطريق الإنصاف والعدل والاعتذار عن المصنف في التخريج لبعضهم مما يقوي جانب القدح فيه إما لكونه تجنب ما طعن فيه بسببه، وإما لكونه أخرج ما وافقه عليه من هو أقوى منه، وإما لغير ذلك من الأسباب.

العاشر: في سياق فهرسة كتابه المذكور باباً باباً وعدة ما في كل باب من الحديث، ومنه تظهر عدة أحاديث بالمكرر أوردته تبعاً لشيخ الإسلام أبي زكريا النووي[١] رضي الله عنه تبركاً به ثم أضفت إليه مناسبة ذلك مما استفدته من شيخ الإسلام أبي حفص البلقيني رضي الله عنه ثم أردفته بسياق أسماء الصحابة الذين اشتمل عليهم كتابه مرتباً لهم على الحروف وعد ما لكل واحد منهم عنده من الحديث، ومنه يظهر تحرير ما اشتمل عليه كتابه من غير تكرير.

ثم ختمت هذه المقدمة بترجمة كاشفة عن خصائصه ومناقبه، جامعة لمآثره ومناقبه ليكون ذكره واسطة عقد نظامها وسرة مسك ختامها، فإذا تحررت هذه الفصول وتقررت هذه الأصول افتتحت شرح الكتاب مستعيناً بالفتاح الوهاب فأسوق إن شاء الله الباب وحديثه أولاً ثم أذكر وجه المناسبة بينهما إن كانت خفية ثم استخرج ثانياً ما يتعلق به غرض صحيح في ذلك الحديث من الفوائد المتينة والإسنادية

---

(١) النووي الإمام الفقيه الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي. مات في رابع عشري رجب سنة ست وسبعين وستمائة. طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٣٩٥.

من تتمات وزيادات وكشف غامض وتصريح مدلس بسماع ومتابعة سامع من شيخ اختلط قبل ذلك، منتزعاً كل ذلك من أمهات المسانيد والجوامع والمستخرجات والأجزاء والفوائد بشرط الصحة أو الحسن فيما أورده من ذلك، وثالثاً: أصل ما انقطع من معلقاته وموقوفاته وهناك تلتئم زوائد الفوائد وتنتظم شوارد الفرائد، ورابعاً: أضبط ما يشكل من جميع ما تقدم أسماء وأوصافاً مع إيضاح معاني الألفاظ اللغوية والتنبيه على النكت البيانية ونحو ذلك، وخامساً: أورد ما استفدته من كلام الأئمة مما استنبطوه من ذلك الخبر من الأحكام الفقهية والمواعظ الزهدية والآداب المرعية مقتصراً على الراجح من ذلك متحرياً للواضح دون المستغلق في تلك المسالك مع الاعتناء بالجمع بين ما ظاهره التعارض مع غيره، والتنصيص على المنسوخ بناسخه والعام بمخصصه والمطلق بمقيده والمجمل بمبينه والظاهر بمؤوله، والإشارة إلى نكت من القواعد الأصولية ونبذ من فوائد العربية ونخب من الخلافيات المذهبية بحسب ما اتصل بي من كلام الأئمة واتسع له فهمي من المقاصد المهمة، وأراعي هذا الأسلوب إن شاء الله تعالى في كل باب فإن تكرر المتن في باب بعينه غير باب تقدم نبهت على حكمة التكرار من غير إعادة له إلا أن يتغاير لفظه أو معناه فأنبه على الموضع المغاير خاصة فإن تكرر في باب آخر اقتصرت فيما بعد الأولى على المناسبة شارحاً لما لم يتقدم له ذكر منبهاً على الموضع الذي تقدم بسط القول فيه فإن كانت الدلالة لا تظهر في الباب المقدم إلا على بعد غيرت هذا الاصطلاح بالاقتصار في الأول على المناسبة، وفي الثاني على سياق الأساليب المتعاقبة مراعياً في جميعها

مصلحة الاختصار دون الهذر والإكثار.

٢ - تهذيب التهذيب:

وهو مصنف ضخم في الرجال يشتمل على اختصار (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) للمزي (٧٤٢ هـ) مع زيادات كثيرة تقرب من ثلث حجم الملخص، وخرج كله من ذلك في قدر ثلث حجم الأصل، ويقع بخط المؤلف بثلاثة مجلدات كسلاسل الذهب، وبخط غيره بستة مجلدات[١]. و «تهذيب التهذيب» من الكتب التي قومها الحافظ ابن حجر بنفسه ورضي عنها، واقتصر فيه على ما يفيد في علم الجرح والتعديل وبين أن المزي أطال وقصرت الهمم عن تحصيله لطوله كما أن (تهذيب التهذيب) للذهبي طويل العبارة مع إهمال في التوثيق والتخريج[٢].

وحذف ابن حجر الأحاديث التي خرجها المزي من مروياته العالية من الموافقات والإبدال وغير ذلك لأنها مما تشتمل عليه المعاجم والمشيخات واقتصر على الأشهر والأحفظ والمعروف من شيوخ الرجل المترجم في كتابه.

أما تعامله مع التراجم القصيرة، فإنه لم يحذف منها شيئاً في الأعم الأغلب، لكنه حذف كثيراً من الخلاف في وفاة المترجم، وزاد في

---

(١) الجواهر والدرر: ص/١٥٦.
(٢) كشف الظنون: ٢/ ١٥١٠.

تراجم الرجال على من هو على شرط أصله، وما ذكره صاحب الكمال وحذفه المزي، وما التقطه من تهذيب الذهبي، والتقط من تراجم الكتب الستة ممَّن ترجم المزي لنظيرهم، كما انتفع مما جمعه مغلطاي على التهذيب للمزي، وكان الانتهاء من تبييضه سنة ٨٠٧ هـ[١].

وطبع للمرة الأولى بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٧ هـ، وقد عادت دار الفكر في بيروت صف حروفه وطباعته سنة ١٤٠٤ هـ، وذلك بما يتناسب وقيمة هذا السفر العظيم فجزاهم الله خيراً.

٣ ـ رتبة تهذيب التهذيب بين كتب الرجال:

صنف العلماء في بيان حال الرواة وضبط أسمائهم وأسماء بلدانهم كتباً جديدة منها:

١ ـ كتاب (قرة العين في ضبط أسماء رجال الصحيحين) لعبد الغني بن صفي الدين أحمد بن محمد بن علي البحراني.

٢ ـ مشتبه الأسماء والنسبة للذهبي.

٣ ـ وتبصير المنتبه في تحرير المشتبه لابن حجر.

٤ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووي.

٥ ـ الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرجهم

---

(١) شاكر محمود: ابن حجر، دراسة ٥٢٦.

البخاري في جامعه لأحمد بن محمد بن الحسن الكلاباذي (٣٠٦ - ٣٩٨ هـ).

٦ - التعديل والجرح لمن روى عنه البخاري في الصحيح لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤٧٤ هـ).

٧ - ابن منجوية في رجال مسلم[١].

٨ - الجمع بين رجال الصحيحين لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي.

٩ - والجمع بين رجال الصحيحين للحافظ سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان بن نصر البلقيني (٨٠٥ هـ).

١٠ - ومثله لأبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري المعروف باللالكائي.

١١ - ومثله لشهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين بن موسى الكردي الأصل الهكاري (٧٦٣ هـ).

١٢ - وله: رجال السنن الأربعة.

١٣ - أسماء رجال سنن أبي داود[١] لأبي علي الحسين بن محمد الغساني المعروف بالجياني الحافظ.

---

(١) مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري أبو الحسن النيسابوري. الإمام الحافظ صاحب «الصحيح». مات في رجب سنة إحدى وستين ومائتين العبر: ٢/ ٢٣.

(٢) أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث بن شداد ابن عمرو الأزدي. الإمام

١٤ ـ الجمع بين الكتب الستة (الكمال في معرفة الرجال) لابن النجار البغدادي.

١٥ ـ نهاية السول في رواة الستة الأصول لبرهان الدين الحلبي.

١٦ ـ الكمال في أسماء الرجال للحافظ عبد الغني بن الواحد المقدسي، وهو في أربع مجلدات.

١٧ ـ تهذيب الكمال في أسمال الرجال في اثني عشر مجلداً للحافظ أبي الحجاج المزي، وقيل لم يؤلف مثله ولا يظن أن يستطاع، ولهذا الكتاب مختصرات فيها.

١٨ ـ تهذيب التهذيب للذهبي، ثم اختصر التهذيب وسمّاه الكاشف.

١٩ ـ واختصر هذا التهذيب صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي، وسماه «خلاصة التهذيب».

٢٠ ـ ومنها: تهذيب التهذيب ـ الذي تكلّمنا عنه للحافظ ابن حجر ـ وزاد عليه فوائد كثيرة ثم لخصه في:

٢١ ـ تقريب التهذيب، وله أيضاً.

٢٢ ـ الثقات ممن ليس في التهذيب.

٢٣ ـ فوائد الاحتفال في أحوال الرجال المذكورين في البخاري.

العلم صاحب كتاب «السنن» و «المراسيل». مات في شوال سنة خمس وسبعين ومائتين.

٢٤ ـ زوائد الرجال مع تهذيب الكمال للسيوطي.

٢٥ ـ إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال لسراج الدين ابن الملقن.

٢٦ ـ تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة للحافظ ابن حجر.

٢٧ ـ التذكرة في رجال العشرة لشمس الدين محمد بن علي بن الحسن الدمشقي الحسيني.

٢٨ ـ التعريف برجال الموطأ لابن الحذاء التميمي.

٢٩ ـ اسعاف المبطأ برجال الموطأ للسيوطي.

٣٠ ـ التعريف برجال معاني الآثار لبدر الدين العيني سماه (مفتي الأخبار في رجال معاني الآثار).

٣١ ـ الإيثار في رجال معاني الآثار للشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي.

٣٢ ـ الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة لابن قطلوبغا إلى غير ذلك مما هو كثير جداً[١].

٤ ـ القول المسدد في الذَّبِّ عن المسند للإمام أحمد:

هو كتاب طيب وضعه شيخ الإسلام ابن حجر على الأحاديث التي زعم بعض أهل الحديث[١] أنها موضوعة وهي في مسند الإمام

(١) الكتاني: الرسالة المستطرفة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) هو الحافظ أبي الفرج بن الجوزي.

أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث في القديم والحديث، وهي حمية من شيخ الإسلام ابن حجر للدفاع عن السنة، وهي ذب عن هذا المصنف العظيم، الذي تلقته الأمة بالقبول والتكريم، وهو مصنف حجة يرجع إليه.

٥ ـ لسان الميزان:

وهو كتاب كبير من سبعة مجلدات، وقد وضعه شيخ الإسلام ابن حجر في علم الرجال، وتراجمه طويلة، وقصيرة أحياناً. وجعله تتمة أو ذيلاً لكتاب الذهبي المعروف «بميزان الاعتدال».

٦ ـ تقريب التهذيب:

وهو مختصر لكتابه تهذيب التهذيب، والتهذيب مختصر لكتاب: تهذيب الكمال للحافظ المزي، وتهذيب الكمال مختصر لكتاب: الكمال في أسماء الرجال للكتب الأصول، من كتب السنة النبوية وهي: الستة المشهورة، للحافظ عبد الغني المقدسي. وفي هذا «التقريب» زيادات في رجال مصنفات أصحاب الكتب الستة، غير الكتب الأصول، وهذه الزيادات:

(١) رجال الأدب المفرد.
(٢) رجال: خلق أفعال العباد.
(٣) جزء رفع اليدين ـ وجميعها للبخاري ـ ثم.
(٤) جزء القراءة.
(٥) رجال مقدمة صحيح مسلم.

(٦) رجال المراسيل.

(٧) فضائل الأنصار.

(٨) كتاب الناسخ.

(٩) كتاب القدر.

(١٠) كتاب التفرد.

(١١) كتاب المسائل.

(١٢) مسند مالك ـ وسبعتها لأبي داود.

(١٣) الشمائل للترمذي.

(١٤) مسند علي.

(١٥ مسند مالك.

(١٦) عمل اليوم والليلة.

(١٧) خصائص علي ـ وخمستها للنسائي.

(١٨) كتاب التفسير لابن ماجه.

وفي التقريب: زيادة فصل: في بيان المبهمات من النسوة، على ترتيب من روى عنهن رجالاً ونساء.

وفي التقريب: من المزايا، ما لم يكن في غيره من سائر الكتب التي جمعت الرجال: منها:

(١)تلخيص الكلام على الراوي، بما يعرّفه ويميزه، مع بيان ما له وما عليه من التعديل أو الجرح، بعبارة قصيرة جامعة محررة.

(٢) ضبط ما يقع من الأسماء والألقاب والكنى، والأنساب

بالحروف غالباً، حتى كأنه لم يؤلف إلا لذلك وحتى كأن ما جمعه ابن عبد الهادي المتوفى سنة ٩٠٩ هـ وسماه «ضبط من غبر، فيمن قيده ابن حجر»، في تقريب التهذيب، ليس إلا قبساً منه.

(٣) أنه انفرد بذكر طبقة الراوي: على ما ذكره في مقدمته: ليعلم من ذلك إجمالاً شيوخ الراوي وتلامذته وسنة وفاته.

(٤) صدره بمقدمة بها ذكر ألفاظ مراتب الجرح والتعديل.

غير أنه وقع لابن حجر: التفرد بضبط بعض الكلمات التي لم يوافق عليها، وأنّه ضيّق العبارة، تكاد العبارة أن تتكلف لاستقامتها، مثل أن يحذف المبتدأ أو العامل للمفعول أو نائب الفاعل. مثل: رمي الإرجاء: طعن فيه، اتهم ونحو ذلك، وفيه أخطاء في تحديد طبقة الرواة.

٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة:

قال ابن حجر: إن من أشرف العلوم الدينية علم الحديث النبوي، ومن أجمل معارفه تمييز أصحاب رسول الله ﷺ ممن خلف بعدهم، وقد جمع في ذلك جمع من الحفاظ تصانيف بحسب ما وصل إليه اطلاع كل منهم. فأول ما عرفته صنف في ذلك أبو عبد الله البخاري أفرد في ذلك تصنيفاً فنقل منه أبو القاسم البغوي وغيره، وجمع أسماء الصحابة مضمومة إلى من بعدهم جماعة من طبقة مشايخه كخليفة بن خياط، ومحمد بن سعد، ومن قرنائه كيعقوب ابن سفيان وأبي بكر بن خيثمة.

وصنف في ذلك جمع بعدهم كأبي القاسم البغوي وأبي بكر ابن أبي داود وعبدان، ومن قبلهم بقليل كمطين. ثم كأبي علي بن السكن وأبي حفص بن شاهين وأبي منصور الماوردي وأبي حاتم بن حبان وكالطبراني ضمن معجمه الكبير. ثم كأبي عبد الله بن منده وأبي نعيم. ثم كأبي عمر بن عبد البروسمي كتابه الاستيعاب لظنه أنه استوعب ما في كتب من قبله، ومع ذلك ففاته شيء كثير فذيل عليه أبو بكر بن فتحون ذيلاً حافلاً وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة، وذيل أبو موسى المديني على ابن منده ذيلاً كبيراً، وفي أعصار هؤلاء خلائق يتعسر حصرهم ممن صنف في ذلك أيضاً، إلى أن كان في أوائل القرن السابع فجمع عز الدين بن الأثير كتاباً حافلاً سماه أسد الغابة جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة إلا أنه تبع من قبله فغلط من ليس صحابياً بهم، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم. . ثم جرد الأسماء التي في كتابه مع زيادات عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي، وعلم لمن ذكر غلطاً ولمن لا تصح صحبته ولم يستوعب ذلك ولا قارب.

وقد وقع لي بالتتبع كثير من الأسماء التي ليست في كتابه ولا أصله على شرطهما، فجمعت كتاباً كبيراً في ذلك، ميزت فيه الصحابة من غيرهم، ومع ذلك فلم يحصل لنا من ذلك جميعاً الوقوف على العشر من أسامي الصحابة بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة الرازي. قال توفي النبي ﷺ ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية.

قال ابن فتحون في ذيل الاستيعاب بعد أن ذكر ذلك أجاب أبو زرعة

بهذا سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم ومع هذا فجميع من في الاستيعاب يعني بمن ذكر فيه باسم أو كنية وهما ثلاثة آلاف وخمسمائة وذكر أنه استدرك عليه على شرطه قريباً ممن ذكر. وقال: وقرأت بخط الذهبي من ظهر كتابه التجريد لعل الجميع ثمانية آلاف إن لم يزيدوا لم ينقصوا. ثم رأيت بخطه أن جميع من في أسد الغابة سبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسون نفساً. ومما يؤيد قول أبي زرعة ما ثبت في الصحيحين عن كعب بن مالك في قصة تبوك والناس، والناس كثير لا يحصيهم ديوان وثبت عن الثوري فيما أخرجه الخطيب بسنده الصحيح إليه قال من قدم علياً على عثمان فقد أزرى على إثني عشر ألفاً مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

فقال النووي وذلك بعد النبي ﷺ باثني عشر عاماً بعد أن كان في خلافة أبي بكر في الردة والفتوح الكثير ممن لم تضبط أسماؤهم، ثم مات في خلافة عمر في الفتوح وفي الطاعون العام وعمواس وغير ذلك من لا يحصى كثرة، وسبب خفاء أسمائهم أن أكثرهم أعراب، وأكثرهم حضروا حجة الوداع، والله أعلم وقد كثر سؤال جماعة من الإخوان في تبييضه فاستخرت الله تعالى في ذلك، ورتبته على أربعة أقسام في كل حرف منه.

القسم الأول:

فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان، وقد كان أولاً رتب هذا القسم الواحد على ثلاثة

أقسام، ثم بدا له ـ أي لابن حجر ـ أن جعله قسماً واحداً، وقد ميز ذلك في كل ترجمة.

القسم الثاني:

فيمن ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد رسول الله ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال ممن مات ﷺ وهو في دون سن التمييز، إذ ذكر أولئك في الصحابة إنما هو على سبيل الإلحاق لغلبة الظن على أنه ﷺ رآهم لتوفر دواعي أصحابه على إحضارهم أولادهم عنده عند ولادتهم ليحنكهم ويسميهم ويبرك عليهم، والأخبار بذلك كثيرة شهيرة. ففي صحيح مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم، وأخرجه الحاكم في كتاب الفتن في المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال ما كان يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي ﷺ فدعا له الحديث.

وأخرج ابن شاهين في كتاب الصحابة في ترجمة محمد بن طلحة بن عبيد الله من طريق محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة عن ظئر محمد بن طلحة قال لما ولد محمد بن طلحة أتيت به النبي ﷺ ليحنكه ويدعو له، وكذلك كان يفعل بالصبيان لكن أحاديث هؤلاء عنه من قبيل المراسيل عند المحققين من أهل العلم بالحديث، ولذلك أفردتهم عن أهل القسم الأول(١).

القسم الثالث:

فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا

(١) الإصابة ـ ٥ ـ ٦/١.

الجاهلية والإسلام ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ ولا رأوه سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق من أهل العلم بالحديث، وإن كان بعضهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة فقد أفصحوا بأنهم لم يذكروهم إلا لمقاربتهم لتلك الطبقة لأنهم من أهلها.

وممن أفصح بذلك ابن عبد البر وقبله أبو حفص بن شاهين فاعتذر عن إخراجه ترجمة النجاشي بأنه صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وغير ذلك، ولو كان من هذا سبيله يدخل عنده في الصحابة ما احتاج إلى اعتذار.

وغلط من جزم في نقله عن ابن عبد البر بأنه يقول: بأنهم صحابة بل مراد ابن عبد البر بذكرهم واضح بنحو مما قررناه، وأحاديث هؤلاء عن النبي ﷺ مرسلة بالاتفاق بين أهل العلم بالحديث، وقد صرح ابن عبد البر نفسه بذلك في التمهيد وغيره من كتبه.

القسم الرابع:

فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط وبيان ذلك البيان الظاهر، الذي يعوّل عليه على طرائق أهل الحديث ولم يذكر فيه ابن حجر رحمه الله إلا ما كان الوهم فيه بيناً، وأما مع احتمال عدم الوهم فلا إلا أن كان ذلك الاحتمال يغلب على الظن بطلانه، وهذا القسم الرابع قال فيه شيخ الإسلام لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر وزبدة ما يمخضه من هذا الفن اللبيب الماهر، والله تعالى أسأل أن يعين على

إكماله، وأن يجعله خالصه لوجهه الكريم، ويجازيني به خير الجزاء في دار أفضاله أنه قريب مجيب.

٨ ـ الأربعون في ردع المجرم عن سب المسلم:

في هذا الكتاب يحدّثنا فخر المحدثين ابن حجر العسقلاني عن تعظيم المسلم، والزجر عن سبه، وظن السوء به. ثم يحلق بنا في أجواء الأخلاق السيئة والمرذولة التي يجدر بنا أن نترفع عنها.

أما عن غرض الكتاف والهدف منه، فيقول قدوة الإسلام: انتقيته عضة لمن بسط لسانه ويده في المسلمين، مع قلة علمه واعوجاجه، وتعرض لسخط ربه، واغتر بحلمه واستدراجه، انتهاكاً لأعراضهم، عسى الله أن يرزقه التوبة والإنابة، فيقتدي بالسلف الصالح من الصحابة، وأتباع الصحابة.

٩ ـ تعريف أهل التقديس:

يقول ابن حجر عن مراتب الموصوفين بالتدليس في أسانيد الحديث النبوي: «أي في الموصوفين بالتدليس» لخصتها في هذه الأوراق لتحفظ وهي مستمدة من جامع التحصيل للإمام صلاح الدين العلائي شيخ شيوخنا تغمدهم الله برحمته مع زيادات كثيرة في الأسماء تعرف بالتأمل وهم على خمس مراتب.

الأولى: من لم يوصف بذلك إلا نادراً كيحيى بن سعيد الأنصاري.

الثانية: من احتمل الأئمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيح لإمامته

وقلة تدليسه في جنب ما روي، كالثوري، أو كان لا يدلس إلا عن ثقة كابن عيينة.

الثالثة: من أكثر من التدليس فلم يحتج الأئمة من أحاديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع، ومنهم من رد حديثهم مطلقاً، ومنهم من قبلهم كأبي الزبير المكي.

الرابعة: من اتفق على أنه لا يحتج بشيء من حديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع لكثرة تدليسهم على الضعفاء والمجاهيل، كبقية بن الوليد.

الخامسة: من ضعف بأمر آخر سوى التدليس فحديثهم مردود ولو صرحوا بالسماع إلا أن يوثق من كان ضعفه يسيراً كابن لهيعة، وهذا القسم المذكور حرره الحافظ صلاح الدين المذكور في كتابه عن التدليس، وفي الفصل الذي ذكره في أسماء المدلسين. وقد أفرد أسماء المدلسين بالتصنيف من القدماء: الحسين بن علي الكرابيسي صاحب الإمام الأعظم الشافعي، ثم النسائي، ثم الدارقطني.

قال ابن حجر: ثم نظم شيخ شيوخنا الحافظ شمس الدين الذهبي في ذلك أرجوزة وتبعه بعض تلامذته وهو الحافظ أبو محمود أحمد بن إبراهيم المقدسي، فزاد عليه من تصنيف العلائي شيئاً كثيراً مما فات الذهبي ذكره، ثم ذيل شيخنا حافظ العصر أبو الفضل بن الحسين في هوامش كتاب العلائي أسماء وقعت له زائدة. ثم ضمها ولده العلامة قاضي القضاة ولي الدين أبو زرعة الحافظ إلى من ذكر العلائي وجعله

تصنيفاً مستقلاً، وزاد من تتبعه شيئاً يسيراً جداً وعلم بما زاده على العلائي.

١٠ ـ الوقوف على ما في صحيح مسلم من الوقوف:

قال ابن حجر رحمه الله: هذا الكتاب في الأحاديث الموقوفة، والمقطوعة.. تتبعتها من «صحيح مسلم»، وقع أكثرها ضمن أحاديث مرفوعة، وهي في الكتاب المذكور كثيرة، لكني لم أتعرض منها مثل:

قول الزهري: ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر، وصَدْراً من خلافة عمر[١]. ومثل قول عبد الله بن مسعود: حتى هَمَمْتُ بأمْرِ سوء، قلت: وما هَمَمْتَ به؟ قال: هممتُ أن أجلِس وأدَعَهُ[٢].

ومثل: قول عوف بن مالك: لَقَدْ رأيتُ بعضَ أولئكَ النَّفَر يسقطُ سَوطُ أحَدِهم، فلا يسألُ أحداً يُناولهُ إيَّاه[٣].

ومثل قول أنس بعد قوله ﷺ أضرُ والله يضر.

ومثل قول أبي هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين[٤].

---

(١) البخاري (٣/ ٥٨)، ومسلم (٦/ ٤٠)، ومعناه استمر كل واحد من المسلمين يقوم رمضان في بيته منفرداً، حتى انقضى صدراً من خلافة عمر، ثم جمعهم عمر على أبي بن كعب فصلى بهم جماعة.

(٢) البخاري (٢/ ٦٤)، ومسلم (٦/ ٦٣)، وابن ماجه (١٤١٨).

(٣) مسلم (٧/ ١٣٢)، وأبو داود (١٦٤٢)، والنسائي (١/ ٢٢٩)، وابن ماجه (٢٨٦٧)، وأحمد (٦/ ٣٧).

(٤) مسلم (١١/ ٤٧).

ومثل قول ابن عمر لما أعتق: فأخذ من الأرض عوداً، فقال: ما فيه من الأجر، ما يساوي هذا[٥].

ومثل قول ابن وعلة لابن عباس: إنا نكون بالمغرب، ومعنا البربر، والمجوس، يؤتى بالكبش قد ذبحوه، ونحن لا نأكل ذبائحهم؟

فقال ابن عباس: سألنا عنه رسول الله ﷺ الحديث[١].

ولو جاء مثلاً بلفظ: سألنا رسول الله ﷺ التيس يؤتى به قد ذبحه المجوس، فأبرز الضمير لأوردته.

ومثل قول مطرف: صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب، فكان إذا سجد كبر، الحديث، وفيه: فقال عمر: إن صلى بنا صلاة رسول الله ﷺ. فلو كان جاء فيه: قال عمران: إن صلى بنا رسول الله ﷺ فكان إذا سجد كبر، لأوردته.

وكذا مثل قول موسى بن سلمة: سألت ابن عباس كيف أصلي إذا كنت مع الإمام بمكة؟ قال: ركعتين سُنَّةَ أبي القاسم. وذكر ما يستقل بنفسه، ولو كان له تعلق بالحديث، كما في المثالين الماضيين.

ومثل: قول أبي بن كعب في ليلة القدر.

ومثل: قول القاسم: كانت عائشة إذا عملت العمل لزمته.

---

(١) مسلم (٤/ ٥٣).
(٥) مسلم: ١١/ ١٢٦.

ومثل: إنكار كعب بن عجرة على من خطب قاعداً، وإنكار عمارة بن رؤيبة على من رفع يديه في الخطبة[٢].

وكان الحامل على جمع هذه الأحاديث أنه يقع في بعض مجالس الحديث قول أبي عمرو بن الصلاح[٣].

في علوم الحديث: «أنه ليس في صحيح مسلم بعد الخطبة، والمقدمة إلا الحديث المرفوع الصرف، غير ممزوج بالموقوفات»، واستدرك من تأخر عن عصر ابن الصلاح عليه، بأنه وقع في مسلم شيء من الموقوفات على بعض التابعين، وهو قول يحيى بن أبي كثير: «لا يستطاع العلم براحة الجسد».

وقال ابن حجر: وظن بعض من شاهدناه أنه ليس في مسلم غير هذا الموضوع، فتتبعت ذلك من الصحيح. ووقوع لي فيه مثل أثر يحيى بن أبي كثير، كقول عروة: لا تقل كسفت الشمس[١]، وغير ذلك، وهذا حين الشروع فيما قصدت إليه.

١١ ـ نخبة الفكر في مُصطلح أهل الأثر:

وكتاب ابن حجر رحمه الله من المؤلفات القيمة التي كان يثنى عليها، وذلك لأنه رغم وجازة لفظه، وصغر حجمه، قد اشتمل على

---

(١) هذه الأقوال لها شواهد.

(٢) المحدث المشهور، صاحب المقدمة الحديثية المعروفة باسمه.

(٣) مسلم (١/ ١٥٠ نووي).

فوائد غزيرة، ولخص فيه المسائل المهمة التي اشتملت عليها كتب علوم الحديث تلخيصاً كافياً. ثم وضحها إيضاحاً بفتح كنوزها، ويوضح ما خفي منها، فهو كما سماه مؤلفه ـ بحق ـ نخبة، ونزهة.

ويمتاز الكتاب أيضاً بأن الحافظ قد وضعه على ترتيب جديد مبتكر، لم يسبقه إليه أحد من المصنفين، ذلك هو أسلوب السير والتقسيم في استقصاء أنواع الحديث. فقد بدأ أولاً بتقسيم الخبر إلى متواتر وآحاد، ثم تكلّم على أقسام الآحاد، وتتبع كل احتمال عقلي في التقسيم، وأحوال كل قسم، حتى استوفى أنواع علوم الحديث.

هذا المنهج في التأليف مزية عظيمة جداً للنخبة وشرحه، فإنه يساعد على كشف النقاب عن جهود المحدثين العلمية الدقيقة، ويدفع ترهات أعداء الإسلام، الذين حاولوا الغض من قيمة تلك الجهود لأن الكتاب بهذا الوضع يثبت أن القواعد العلمية التي اتبعها علماء الحديث لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها دراسة وبحثاً. فكان بمثابة إحصاء يبين أن ليس ثمة احتمال في سند الحديث أو في متنه، إلا بحثته قواعد هذا الفن. فكان هذا الأسلوب المبتكر حجة قوية في تثبيت هذا العلم، فضلاً عما يمتاز به من الإشارة إلى الفروق الدقيقة بين أنواع الحديث المتشابهة، والفصل بينها بأيسر سبيل.

١٢ ـ إنباء الغُمر بأبناء العمر:

كتاب كبير في التاريخ يتكون من تسع أجزاء في خمسة مجلدات. قال عنه ابن حجر رحمه الله: هذا تعليق جمعت فيه حوادث الزمان الذي أدركته منذ مولدي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وهلمّ جرّا مفصلاً

في كل سنة ـ أحوال الدول ـ عن وفيات الأعيان مستوعباً لرواة الحديث خصوصاً من لقيته أو أجاز لي، وغالب ما أورد فيه ما شاهدته أو تلقفته مما أرجع إليه أو وجدته بخط من أثق به من مشايخي ورفقتي كالتاريخ الكبير للشيخ ناصر الدين بن الفرات، وقد سمعت عليه جملة من الحديث، وكصارم الدين بن دقمان، وقد اجتمعت به كثيراً، وغالب ما أنقله من خطه ومن خط ابن الفرات عنه ـ وللحافظ العلامه شهاب الدين أحمد بن علاء الدين بن حجي الدمشقي، وقد سمعت منه وسمع مني ـ والفاضل البارع المفتنّ تقي الدين أحمد بن علي الفاسي القاضي المالكي بمكة، والحافظ المكثر صلاح الدين خليل بن محمد بن محمد الأقفهسي وغيرهم، وطالعت عليه تاريخ القاضي بدر الدين محمود العيني، وذكر أن الحافظ عماد الدين بن كثير عمدته في تاريخه، وهو كما قال لكن منذ انقطع ابن كثير صارت عمدته على تاريخ ابن دقمان حتى كان يكتب منه الورقة الكاملة متوالية، وربما قلّده فيما يَهِم فيه حتى في اللحن الظاهر مثل اخلع على فلان، وأعجب منه أن ابن دقمان يذكر في بعض الحادثات ما يدل على أنه شاهدها فيكتب البدر كلامه بعينه بما تضمنه، وتكون تلك الحادثة وقعت بمصر وهو يَعْدُ في عينتاب[1]، ولم أتشاغل بتتبع عثراته بل كتبت منه ما ليس عندي مما أظنه أنه اطّلع عليه من الأمور التي كنا نغيب عنها ويحضرها وسميته «إنباء الغمر بأبناء العمر». وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على ذيل تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير

---

(١) قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. النجوم الزاهرة ٧/ ١٣٣.

فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين بن رافع فإنها انتهت أيضاً الى أوائل هذه السنة.

ثم قدّر الله سبحانه للحافظ الوصول إلى حلب حرسها الله تعالى في شهر رمضان سنة ست وثلاثين فطالعت تاريخها الذي جمعه الحاكم بها العلامة الأوحد الحافظ على الدين ذيلاً على تاريخها لابن العديم، وقد بيض أوائله فطالعته كله من المبيضة، ثم من المسوّدة، وألحقت فيه أشياء كثيرة وسمعت منه أيضاً، وسمع مني متّع الله بقاءه.

الفصل الرابع

١ ـ الرواية والرواة
٢ ـ طبقات الرواة
٣ ـ طبقة الصحابة
٤ ـ كيف يعرف الصحابي
٥ ـ الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابياً
٦ ـ عدد الصحابة
٧ ـ علم الصحابة
٨ ـ بيان حال الصحابة من العدالة
٩ ـ الأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة
١٠ ـ أكثر الصحابة فتوى
١١ ـ أشهر ما صنف في الصحابة
١٢ ـ الطبقة الثانية ـ التابعون
١٣ ـ الطبقة الثالثة ـ أتباع التابعين

١ ـ الرواية والرواة:

إن الله تعالى ابتعث محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وأنزل عليه القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[١]، وقال سبحانه ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه** ﴾[٢].

١ ـ فكان رسول الله ﷺ هو المبين عن الله عز وجل وأمره، وعن كتاب الله معاني ما خوطب به الناس وما أراد الله عز وجل به وعنى فيه، ولم يزل على ذلك حتى توفاه الله عز وجل.

٢ ـ والسبيل لمعرفة معاني كتاب الله تعالى يكون بالآثار الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه النجباء الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضي الله عنهم. هذا، وإنما تعرف الآثار الصحيحة منها والسقيمة بنقد العلماء الجهابذة الذين خصهم الله عز وجل بهذه الفضيلة، ورزقهم هذه المعرفة، وشهد لهم أهل العلم بذلك.

هذا ولا سبيل إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ولا من سنن رسوله عليه الصلاة والسلام إلا من جهة النقل، وجب أن نميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم، وأهل الحفظ والثبت والاتقان منهم

---

(١) سورة النحل آية: ٤٤.

(٢) السورة السابقة آية: ٦٤.

وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة.

ولما كان الدين هو ما جاءنا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ بنقل الرواة حق علينا معرفتهم، ووجب الفحص عن الناقلة، والبحث عن أحوالهم، لإثبات الذين عرفوا بشرائط العدالة والثبت في الرواية مما يقتضيه حكم العدالة في نقل الحديث وروايته، وأن يعزل عنهم الذين جرحهم أهل العدالة، وكشفوا لنا عن عوراتهم في كذبهم، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ، وكثرة الغلط والسهو والاشتباه ليعرف به أدلة هذا الدين وأعلامه، وأمناء الله تعالى في أرضه على كتابه وسنة رسوله ﷺ فيتمسك بالذي رووه، ويعتمد عليه، ويحكم به.

وليعرف أهل الكذب والغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ، فيكشف عن حالهم.. وهؤلاء هم أهل الجرح، فيسقط حديث من وجب منهم أن يسقط حديثه ولا يعبأ به، ولا يعمل عليه.

ويكتب حديث من وجب كتب حديثه منهم على معنى الاعتبار.

٢ ـ طبقات الرواة:

من المعلوم تاريخاً أن المراحل التاريخية لتلقي أحاديث رسول الله ﷺ وحمله في الصدور ثم حفظه جملة مدوناً في المصنفات، يمكن إجمالها بعد عصر النبي عليه الصلاة والسلام في طبقات ثلاث وهي:

٣ ـ طبقة الصحابة:

الصحابي لغة: مشتق من الصحبة، وليس مشتقاً من قدر خاص

منها، بل هو جار على من صحب غيره قليلاً كان أو كثيراً، كما أن القول: مكلم ومخاطب وضارب مشتق من المكالمة، والمخاطبة والضرب، وجار على كل من وقع منه ذلك قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال.

وكذلك يقال صحب فلاناً حولاً ودهراً وسنة وشهراً ويوماً وساعة فيوقع اسم المصاحبة بقليل ما يقع منها وكثيرة[1]. والصحابي عند المحدثين:

هو كل مسلم رأى رسول الله ﷺ[2]، قال البخاري في صحيحه: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه، وذكر الإمام أحمد من أصحاب رسول الله ﷺ أهل بدر ثم قال: أفضل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه، له من الصحابة على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر إليه[3].

قال ابن حزم رحمه الله: أما الصحابة رضي الله عنهم فهو كل من جالس النبي ﷺ ولو ساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها أو شاهد منه، عليه السلام أمراً يعيه، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل واشتهر حتى ماتوا على ذلك، ولا مثل من نفاه عليه السلام باستحقاقه كهيت المخنث ومن جرى مجراه[1]، فمن كان كما وصفنا أولاً فهو صاحب،

---

(١) الكفاية في علم الرواية ص/ ٥١. وزيادة.

(٢) تدريب الراوي للسيوطي ص/ ٣٩٦ وزيادة.

(٣) الكفاية ص ٥١ وزيادة.

(٤) انظر خبره في الإصابة ص ٥٨٠ ـ ٥٨١. ترجمة ٩٠٢٢/ ٣.

وكلهم عدل إمام فاضل رضي، فرض علينا توقيرهم وتعظيمهم، وأن نستغفر لهم ونحبهم[٢].

قال ابن الصلاح: بلغنا عن أبي المظفر السمعاني المروزي أنه قال: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة، وهذا لشرف منزلة النبي ﷺ أعطوا كل من رآه حكم الصحابة[٣].

وقال آخرون: لا بد في إطلاق الصحبة مع الرؤية أن يروي حديثاً أو حديثين[٤].

قال الواقدي: ورأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله ﷺ، وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار[٥]، إلا أن تعريف الواقدي هذا يخرج بعض الصحابة الذين رأوا رسول الله وهم دون الحلم ورووا عنه، كعبد الله بن عباس والحسن والحسين وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم، ولذلك قال العراقي: والتقييد بالبلوغ شاذ[٦].

قال إمام التابعين سعيد بن المسيب: الصحابة لا تعدهم إلا من أقام

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٥/ ٦٦٣.

(٢) مقدمة ابن الصلاح: ص/ ١١٨. وزيادة.

(٣) الباعث الحثيث للشيخ شاكر: ص/ ٢٠٣.

(٤) فتح المغيث للسخاوي ص ٣٢/ ٤.

(٥) المصدر السابق.

مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين.

قال ابن الصلاح: وكأن المراد بهذا ـ إن صح عنه ـ راجع إلى المحكي عن الأصوليين ولكن في عبارته ضيق يوجب ألا يعد من الصحابة جرير بن عبد الله البجلي ومن شاركه[1].

قال العراقي: ولا يصح هذا عن ابن المسيب، ففي الإسناد إليه محمد بن عمر الواقدي ضعيف في الحديث.

قال ابن الجوزي: وعموم العلماء على خلاف قول ابن المسيب، فإنهم عدوا جرير بن عبد الله (البجلي) من الصحابة، وإنما أسلم في سنة عشر، وعدوا من الصحابة، من لم يغز معه، ومن توفي رسول الله ﷺ وهو صغير السن، ولم يجالسه ولم يماشه، فألحقوه بالصحابة إلحاقاً، وإن كانت حقيقة الصحبة لم توجد في حقه.

قال ابن حجر: وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى، وهو رأي الجمهور.

والرؤية عند أنس بن مالك رضي الله عنه لا تكفي لجعل الرائي صحابياً.

---

(١) فتح المغيث: ٤/ ٣٢.

روى شعبة عن موسى السيلاني وأثنى عليه خيراً، قال: قلت لأنس بن مالك: هل بقي من أصحاب رسول الله ﷺ أحد غيرك؟ قال: ناس من الأعراب رأوه، فأما من صحبة فلا. رواه مسلم بحضرة أبي زرعة.

قال أبو بكر الباقلاني (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ) بعد أن عرف الصحابي لغة: (وكذلك يقال: صحبت فلاناً حولاً ودهراً وسنة وشهراً ويوماً وساعة). وذلك يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار، هذا هو الأصل في اشتقاق الاسم. ومع هذا فقد تقرر للأمة[1] عرف أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته، واتصل لقاؤه، ولا يجرون ذلك على من لقي المرء ساعة ومشى معه خطا وسمع منه حديثاً، فأوجب لذلك ألا يجري هذا الاسم في عرف الاستعمال إلا على من هذه حاله، ومع هذا فإن خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به وإن لم تطل صحبته، ولا سمع منه إلا حديثاً واحداً. فقول أنس رضي الله عنه لا يخالف عرف الأمة، ومما لا شك فيه أن الصحابة على درجات بحسب تقدمهم في الإسلام.

وإلى رأي الجمهور أميل وبه أقول، لأنه في الحقيقة لم يرد صحابي عن رسول الله ﷺ حديثاً إلا قد ثبتت عدالته عند جهابذة هذا العلم بتطبيق قواعد النقد العلمي الصحيحة، التي طبقوها في علم الحديث على سائر الرواة، وسيتجلى لنا ما ذهبت إليه عندما نتكلم عن عدالة الصحابة.

---

(١) الكفاية: ص/ ٥١.

والصحابي عند الأصوليين أو بعضهم: هو كل من طالت مجالسته للرسول ﷺ، على طريق التبع له والأخذ عنه[1]، وقول أنس بن مالك وسعيد بن المسيب قريب من قول الأصوليين.

وصحيح أن أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحبة على كل من روى عن النبي ﷺ حديثاً أو كلمة، ويتوسعون حتى أنهم يعدون من رآه رؤية من الصحابة، قالوا هذا لشرف منزلة النبي ﷺ إلا أن الصحابة رضي الله عنهم طبقات ودرجات، فهناك السابقون في الإسلام، الذين طالت صحبتهم، وبذلوا أموالهم ودماءهم للدعوة، وهناك من رآه في حجة الوداع رؤية، وبين هؤلاء وهؤلاء درجات ومراتب كثيرة، وهناك من لازمه في الليل والنهار، في حله وظعنه، في صيامه وفطره، وفي مرحه عليه الصلاة والسلام وجده، وفي جهاده ومناسكه، وعرف عنه كثيراً من دقائق الأعمال وشريف السنن، فلا يعقل أن يكون جميع الصحابة في مرتبة واحدة، ولا يتصور هذا في ميزان العدالة والمنطق، لذلك كان الصحابة طبقات بإجماع الأمة، واختلف المؤلفون في تصنيف الصحابة إلى طبقات، فجعلهم ابن سعد خمس طبقات، وجعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقة، وزاد بعضهم أكثر من ذلك[1].

والمشهور ما ذهب إليه الحاكم، وهذه الطبقات هي[2]:

١ ـ قوم تقدم إسلامهم بمكة كالخلفاء الأربعة.

---

(١) تدريب الراوي: ص/ ٣٩٧.

(٢) الباعث الحثيث: ص ٢٠٧.

(٣) معرفة علوم الحديث: ص ٢٢ ـ ٢٤.

٢ ـ الصحابة الذين أسلموا بمكة كالخلفاء الأربعة.

٣ ـ مهاجرة الحبشة.

٤ ـ أصحاب العقبة الأولى.

٥ ـ أصحاب العقبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.

٦ ـ أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بقباء قبل أن يدخل المدينة.

٧ ـ أهل بدر.

٨ ـ الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

٩ ـ أهل بيعة الرضوان في الحديبية.

١٠ ـ من هاجر بين الحديبية وفتح مكة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبي هريرة.

١١ ـ مسلمة الفتح، الذين أسلموا في فتح مكة.

١٢ ـ صبيان وأطفال رأوا النبي ﷺ يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرهما.

وقد أجمع أهل السنة على أن أفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ولم يختلف واحد من الصحابة والتابعين في أفضليتهم على جميع الصحابة ثم عثمان بن عفان، ثم علي، وحكى الخطابي عن أهل السنة من الكوفة تقديم علي على عثمان، وبه قال ابن خزيمة، ثم بعدهم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أحد، ثم بيعة الرضوان، وممن لهم مزية أهل العقبتين من الأنصار[1]، والسابقون الأولون وهم

---

(١) أصول الحديث ـ د. عجاج: ص/ ٣٩٠ ـ ٣٩١.

من صلى القبلتين في قول ابن المسيب ومحمد بن سيرين وقتادة، وفي قول الشعبي أهل بيعة الرضوان، وفي قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار أهل بدر، وقيل: هم الذين أسلموا قبل الفتح، وهو قول الحسن البصري.

٤ ـ كيف يعرف الصحابي:

يعرف الصحابي بأحد الأدلة التالية:

١ ـ الخبر المتواتر: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم.

٢ ـ الخبر المشهور، أو المستفيض القاصر عن حد التوتر، كعكاشة بن محصن، وضمام ابن ثعلبة.

٣ ـ أن يخبر أحد الصحابة عنه أنه صحابي، كحممة بن أبي حممة الدوسي الذي توفي بأصبهان مبطوناً، فشهد له أبو موسى الأشعري أنه سمع النبي ﷺ.

٤ ـ أين يخبر عن نفسه بأنه صحابي بعد ثبوت عدالته ومعاصرته للرسول ﷺ[١].

٥ ـ أن يخبر أحد التابعين بأنه صحابي بناء على قبول التزكية من واحد وهو الراجح. ويمكن ضم الثالث والخامس أحدهما إلى الآخر فنقول أن يخبر بذلك من تقبل شهادته. فالصحبة رتبة ومكانة لا تثبت

(١) تفصيل ذلك في فتح المغيث ٤/ ٣٤.

لأحد إلا بدليل أو بينة توافرت فيها جميع الشروط والأركان التي يجب أن تتوافر في كل بينة، فإذا أقامت البينة المقبولة لأحد في ذلك نال شرف الصحبة.

٥ ـ الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابياً:

قال ابن حجر رحمه الله[١]: وذلك بأشياء أولها أن يثبت بطريق التواتر أنه صحابي، ثم بالاستفاضة والشهرة، ثم بأن يروي عن أحد من الصحابة أن فلاناً له صحبة مثلاً، وكذا عن آحاد التابعين بناء على قبول التزكية من واحد وهو الراجح، ثم بأن يقول هو إذا كان ثابت العدالة والمعاصرة أنا صحابي.

أما الشرط الأول هو العدالة فجزم به الآمدي وغيره، لأن قوله قبل أن ثبتت عدالته أنا صحابي، أو ما يقول مقام ذلك يلزم من قبول قوله إثبات عدالته، لأن الصحابة كلهم عدول، فيصير بمنزلة قول القائل أنا عدل، وذلك لا يقبل. وأما الشرط الثاني وهو المعاصر فيعتبر بمضي مائة سنة وعشر سنين من هجر النبي ﷺ لقوله ﷺ في آخر عمره لأصحابه: «**أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض ممن هو اليوم عليها أحد**[٢]». رواه البخاري ومسلم

---

(١) الإصابة: ١/٨.

(٢) رواه البخاري في: (٣) كتاب العلم ـ (٤١) باب السَّمر في العلم ـ حديث رقم: (١١٦).
ورواه في: (٩) كتاب المواقيت ـ (٢٠) باب ذكر العشاء والعتمة ـ حديث رقم: (٥٦٤). =

من حديث جابر أن ذلك كان قبل موته ﷺ بشهر ولفظه سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «أقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ»[1]، ولهذه النكتة لم تصدق الأئمة أحداً ادعى الصحبة بعد الغاية المذكورة، وقد ادعاها جماعة فكذبوا، وكان آخرهم ابن الهندي. ثم من لم يعرف حاله إلا من جهة نفسه فمقتضى كلام الآمدي الذي سبق، ومن تبعه أن لا تثبت صحته، ونقل أبو الحسن بن القطان فيه الخلاف، ورجح عدم الثبوت، وأما ابن عبد البر فجزم بالقبول بناء على أن الظاهر سلامته من الجرح، وقوي ذلك بتصرف أئمة الحديث في تخريجهم أحاديث هذا الضرب في مسانيدهم، ولا ريب في انحطاط رتبة من هذا سبيله عمن مضى، ومن صور هذا الضرب أن يقول التابعي أخبرني فلان مثلاً أنه سمع النبي ﷺ يقول سواء أسماه أم لا.

ورواه في (٤٠) باب السَّمر في الفقه ـ حديث رقم: (٦٠١).
ورواه مسلم في: (٤٤) كتاب فضائل الصحابة ـ (٥٣) باب قوله ﷺ «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» حديث رقم: (٢١٧).
ورواه أبو داود في: (٣٦) كتاب الملاحم ـ (١٨) باب قيام الساعة ـ حديث رقم: (٤٣٤٨). ورواه الترمذي في: (٣١) كتاب الفتن: باب (٦٤) ـ حديث رقم: (٢٢٥١).

(١) رواه مسلم في: (٤٤) كتاب فضائل الصحابة ـ (٥٣) باب قوله ﷺ «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» حديث رقم: (٢١٨).
ورواه الترمذي في: (٣١) كتاب الفتن ـ باب (٦٤) ـ حديث رقم: (٢٢٥٠).
وقال أبو عيسى: حديث حسن.
ورواه أحمد في «مسنده»: ١/ ٩٣، ٣/ ٣٤٥.

أما إذا قال أخبرني رجل مثلاً عن النبي ﷺ بكذا فثبوت الصحبة بذلك بعيد لاحتمال الإرسال، ويحتمل التفرقة بين أن يكون القائل من كبار التابعين فيرجح القبول أو صغارهم، فيرجح الرد، ومع ذلك فلم يتوقف من صنف في الصحابة في إخراج من هذا سبيله في كتبهم والله أعلم.

٦ ـ عدد الصحابة:

إن حصر الصحابة رضي الله عنهم بالعد والإحصاء متعذر، لتفرقهم في البلدان والبوادي، ولأنهم كثرة لا يمكن إحصاؤها، ومن حدهم من العلماء فإنه من باب التقريب. وقد روى البخاري في صحيحه أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: «وأصحاب رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ»[١].

ويمكننا أن نجد عددهم بحد قريب من الحقيقة، مما ورد في روايات بعض الصحابة والتابعين عن عددهم في بعض المشاهد.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من رمضان فصام وصام الناس معه، حتى إذا كانوا بالكديد[٢] أفطر ثم مضى في عشرة آلاف من المسلمين حتى نزل ممر صرار»[٣].

---

(١) فتح المغيث: ٤/ ٣٩.
(٢) الكديد: عين جارية بينها وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها.
(٣) تلقيح فهوم أهل الآثار: ص ٢٧: ب.

وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع تسعون ألفاً من المسلمين[٤].

سأل رجل أبا زرعة الرازي فقال له: «يا أبا زرعة، أليس يقال حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث؟ قال: ومن قال ذا؟ قلقل الله أنيابه، هذا قول الزنادقة[٥]، ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ؟».

قبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه قيل: يا أبا زرعة، هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما، والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع[١]. من هذا يتبين أن من روى عن رسول الله ﷺ من الصحابة كثيرون، وقد نقلوا عنه خيراً عظيماً، ويختلفون في مقدار ما حملوا عنه باختلاف أحوالهم وسماعهم منه ﷺ.

٧ ـ علم الصحابة:

لم يكن الصحابة على درجة واحدة من العلم بسنة رسول الله ﷺ وأحواله وأقواله، بل كانوا متفاوتين لأن منهم المتفرغ الملازم لرسول الله ﷺ، يخدمه في معظم أوقاته، كأنس وأبي هريرة رضي الله عنهما، ومنهم ما له ماشيته في البادية، أو تجارته في الآفاق، ومنهم البدوي والحضري والمقيم والظاعن[١]، وكان الصحابة رضوان الله

---

(١) نور اليقين: ص ٢٥٦.

(٢) الزنادقة جمع زنديق، والزندقة: القول بأزلية العالم، وأطلق على الزردشتية، وتوسع فيه فأطلق على كل شاكٍّ أو ضالٍّ أو ملحد.

(٣) فتح المغيث: ٤/ ٣٩ وزيادة.

(٤) أصول الحديث د. عجاج: ص/ ٤٠٢.

عليهم يختلفون في مقدار ما حملوا عنه عليه الصلاة والسلام.

وفي ذلك يقول مسروق: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ[٢]».

ويمكننا أن نعرف علم الصحابي كما قال ابن حزم لأحد وجهين لا ثالث لهما، أحدهما: كثرة روايته وفتاويه، والثاني: كثرة استعمال النبي ﷺ له، فمن المحال الباطل أن يستعمل النبي ﷺ من لا علم له وهذا أكبر شهادات على العلم وسعته.

وهذا لا يكفي لمعرفة علم الصحابي وروايته. لأن بعض الصحابة الذين عُرِفَت ملازمتهم للرسول ﷺ وسبقهم للإسلام بالتواتر، كأبي بكر وعمر اللذين حملا علماً كثيراً عنه عليه الصلاة والسلام، لم يظهر علمهم كله لنا، وبخاصة أبو بكر لأنه لم يعش كثيراً بعد رسول الله ﷺ ليحتاج إليه كما احتيج إلى غيره، فامتداد عمر الصحابي إلى جانب الوجهين السابقين اللذين ذكرهما ابن حزم يكشف لنا عن عمله ومروياته، كما أن ظهور أمور جديدة في الحياة مع مر الزمن يكشف عن علم الصحابة، لأنه يحتاج إلى ما عندهم تجاه تلك الأمور المستجدة، وفي هذا يقول ابن حزم: «ثم وجدنا الأمر كلما طال كثرت الحاجة إلى الصحابة فيما عندهم من العلم، فوجدنا حديث عائشة

---

(١) طبقات ابن سعد ص ١٠٤ قسم ٢/٢.

رضي الله عنها ألفي مسند ومائتي مسند وعشرة مسانيد وحديث أبي هريرة. . . »(١). والآن إذا نظرنا إلى عدد الصحابة الذين رووا عن رسول الله ﷺ وعدد مروياتهم، فقد روى عنه ﷺ سبعة من الصحابة، لكل منهم أكثر من ألف حديث، وأحد عشر صحابياً، لكل واحد منهم، أكثر من مائتي حديث، وواحد وعشرون صحابياً، لكل واحد أكثر من مائة حديث، وأما أصحاب العشرات فكثيرون، يقربون المائة، وأما من له عشرة أحاديث أو أقل من ذلك فهم فوق المائة.

وهناك نحو ثلاثمائة صحابي روى كل واحد منهم عن الرسول ﷺ حديثاً واحداً(٢).

بهذا العرض السريع يمكننا أن نتصور اختلاف تحمل الصحابة عن الرسول ﷺ. وجميعهم عندنا عدول، في منزلة شريفة ومقام كريم، لا نفضل أحداً على غيره عصبية أو هوى، بل لكل صحابي فضله ومنزلته، بما له من سبق في الإسلام وبذل في سبيل الله، وكلهم خير، نالوا شرف الصحبة، فكانوا أمناء مخلصين للشريعة الغراء التي نقلوها إلى التابعين، ثم نقلها هؤلاء إلى من بعدهم، ثم نقلت جيلاً عن جيل حتى وصلتنا كاملة غير منقوصة بفضل الله وحسن رعايته.

---

(١) أصول الحديث ـ من عجاج ـ ص/ ٤٠٤.

(٢) جمع بقي بن مخلد في مسنده الدقيق مرويات الصحابة وذكر عدد مسانيدهم إلا أنه لم يصلنا هذا المسند بل وصلتنا أخباره وبعض ما فيه وما ذكرته من عدد مرويات الصحابة. ذكره أبو البقاء الأحمدي نقلاً عن مسند الإمام ابن مخلد. أنظر البارع الفصيح في شرح الجامع الصحيح ص ٩ : ب ـ ١٣ : ب.

٨ ـ بيان حال الصحابة من العدالة:

قال ابن حجر[١]: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة، وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلاً نفيساً في ذلك فقال: عدالة الصحابي ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وأخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾[٢]، وقوله ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾[٣]، وقوله ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم** ﴾[٤]، وقوله ﴿**السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[٥]، وقوله: ﴿ **يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾[٦]، وقوله ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾[٧] إلى قوله ﴿ **إنك رؤوف رحيم** ﴾ في آيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من

---

(١) الإصابة: ١/ ١٠.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٣) سورة البقرة آية: ١٤٣.

(٤) سورة الفتح آية: ١٨.

(٥) سورة التوبة آية: ١٠٠.

(٦) سورة الحشر آية: ٨.

الخلق على أنه لو لم يره من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرنا لا وجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم كافة أفضل من جميع المخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتمد قوله، ثم روى بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: (إذا رأيت الرجل يتنقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

٩ ـ الأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة:

من أدلها على المقصود ما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فقد يوشك أن يأخذه»[١].

وقال أبو محمد بن حزم الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً قال الله

---

(١) رواه الترمذي في: (٤٦) كتاب المناقب ـ باب (٥٩) حديث رقم: (٣٨٦٢).
قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
ورواه أحمد: ٤/ ٨٧، ٥/ ٥٥، ٥٧.

تعالى ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[2] فثبت أن الجميع من أهل الجنة وأنه لا يدخل أحد منهم النار لأنهم المخاطبون بالآية السابقة فإن قيل التقييد بالإنفاق والقتال يخرج من لم يتصف بذلك وكذلك التقييد بالإحسان في الآية السابقة وهي قوله تعالى ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾[3] الآية يخرج من لم يتصف بذلك وهي من أصرح ما ورد في المقصود، ولهذا قال المازري في شرح البرهان لسنا نعني بقولنا الصحابة عدول كل من رآه ﷺ يوماً أو زاره لماماً[4] أو اجتمع به لغرض وانصرف عن كثب[5] وإنما نعني به الذين لازموه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

والجواب عن ذلك أن التقييدات المذكورة خرجت مخرج الغالب، وإلا فالمراد من اتصف بالإنفاق والقتال بالفعل أو القوة، وأما كلام المازري فلم يوافق عليه بل اعترضه جماعة من الفضلاء، وقال الشيخ صلاح الدين العلائي هو قول غريب يخرج كثيراً من المشهورين

---

(١) سورة الحديد آية: ١٠.
(٢) سورة الأنبياء آية: ١٠١.
(٣) سورة التوبة آية: ١٠٠.
(٤) قوله: «لماما» أي في رفقة.
(٥) قوله: «عن كتب» أي عن قرب، وأراد بذلك الوقت القليل.

بالصحبة والرواية عن الحكم بالعدالة كوائل[١] بن حجر ومالك[٢] بن الحويرث وعثمان[٣] بن أبي العاص، وغيرهم من وفد على النبي عليه الصلاة والسلام ولم يقم عنده إلا قليلاً وانصرف، وكذلك من لم يعرف إلا برواية الحديث الواحد ولم يعرف مقدار إقامته من أعراب القبائل، والقول بالتعميم هو الذي صرح به الجمهور، وهو المعتبر والله سبحانه أعلم، وقد كان تعظيم الصحابة ولو كان اجتماعهم به ﷺ قليلاً مقرراً عند الخلفاء الراشدين وغيرهم، فمن ذلك ما قرأت في كتاب أخبار الخوارج[٤] تأليف محمد ابن قدامة المروزي بخط بعض من سمعه منه في سنة سبع وأربعين ومائتين. قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا زهير هو الجعفي عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي قال كنت عند أبي سعيد الخدري وقرأت على أبي الحسن علي بن أحمد المرداوي بدمشق عن زينب بنت الكمال سماعاً عن يحيى بن القميرة إجازة عن شهدة الكاتبة سماعاً قالت: أخبرنا الحسين بن أحمد بن طلحة أخبرنا أبو عمر بن مهدي قال حدثنا أبو خيثمة زهير بن معاوية الجعفي عن

---

(١) وائل بن حجر، بضم المهملة وسكون الجيم، ابن سعد بن مسروق، الحضرمي، صحابي جليل، وكان من ملوك اليمن، ثم سكن الكوفة، مات في ولاية معاوية.

(٢) مالك بن الحويرث، بالتصغير، أبو سليمان الليثي، صحابي، نزل البصرة، مات سنة أربع وتسعين.

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي، الطائفي، أبو عبد الله، صحابي شهير، استعمله رسول الله ﷺ على الطائف، ومات في خلافة معاوية بالبصرة.

(٤) الخوارج: فرقة من الفرق الإسلامية، خرجوا على الإمام عليّ وخالفوا رأيه، ويطلق أيضاً على من خرج على الخلفاء ونحوهم.

الأسود ـ يعني ابن قيس ـ عن نبيح ـ يعني العنـزي ـ عن أبي سعيد الخدري قال: كنا عنده وهو متكىء فذكرنا علياً ومعاوية فتناول رجل معاوية فاستوى أبو سعيد الحذري جالساً ثم قال: كنا ننزل رفاقاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكنا في رفقة فيها أبو بكر فنزلنا على أهل أبيات وفيهم امرأة حبلى ومعنا رجل من أهل البادية فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدي غلاماً قالت: نعم. قال: إن أعطيتني شاة ولدت غلاماً فأعطته فسجع لها أسجاعاً ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها وجلسنا نأكل منها ومعنا أبو بكر فلما علم بالقصة قام فتقيأ كل شيء أكل. قال: ثم رأيت ذلك البدوي أتى به عمر بن الخطاب فقال لهم عمر لولا أن له صحبة من رسول الله ﷺ ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه، ولكن له صحبة من رسول الله ﷺ[1].

قال ابن حجر: وفي ذلك أبين شاهد على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصحبة لا يعدله شيء كما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الحذري من قوله ﷺ «والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه[1]».

---

(١) لفظ علي بن الجعد ورجال هذا الحديث ثقات، وقد توقف عمر رضي الله عنه معاتبته فضلاً عن معاقبته لكونه علم أنه لقي النبي ﷺ.

(١) رواه البخاري في: (٦٢) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ (٥) باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» ـ حديث رقم: (٣٦٧٣).
ورواه مسلم في: (٤٤) كتاب فضائل الصحابة ـ (٥٤) باب تحريم سب الصحابة، رضي الله عنهم ـ حديث رقم: (٢٢١، ٢٢٢).
ورواه أبو داود في: (٣٩) كتاب السنة ـ (١١) باب في النهي عن سب =

وتواتر عنه ﷺ قوله «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»[(١)]. وقال بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»[(١)] وروى البزار في مسنده بسند رجاله موثقون من حديث سعيد ابن المسيب عن جابر قال قال رسول الله ﷺ «إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين» وقال عبد الله بن هاشم الطوسي حدثنا وكيع قال سمعت سفيان يقول في قوله تعالى ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[(١)]

أصحاب رسول الله ﷺ - حديث رقم: (٤٦٥٨).

ورواه الترمذي في: (٤٦) كتاب المناقب - باب (٥٩) - حديث رقم: (٣٨٦١).

قال أبو عيسى - حديث حسن صحيح.

ومعنى قوله: نصيفه يعني نصف المُدِّ.

ورواه ابن ماجه في: «المقدمة» - باب (١١) - حديث رقم: (١٦١).

قال محققه: في الزوائد: إسناده صحيح.

ورواه أحمد: ٣/ ١١، ٥٤، ٦/٦.

روآه البخاري في: (٥٢) كتاب الشهادات - (٩) باب لا يشهد على شهادة جورٍ إذا أشهد - حديث رقم: (٢٦٥٢).

ورواه الترمذي في: (٣١) كتاب الفتن - (٤٥) باب ما جاء في القرن الثالث - حديث رقم: (٢٢٢١).

ورواه ابن ماجه في: (١٣) كتاب الأحكام - (٢٧) باب كراهية الشهادة لمن لم يشهد - حديث رقم: (٢٣٦٢).

ورواه أحمد: ١/ ٣٧٨، ٤٣٤، ٤٤٢، ٢/ ٢٢٨.

(١) رواه أحمد في «مسنده»: ٥/ ٣، ٥.

(١) سورة النمل آية: ٥٩.

قال همُ أصحاب محمد ﷺ، والأخبار في هذا كثيرة جداً فلنقتصر على هذا القدر ففيه مقنع.

١٠ ـ أكثر الصحابة فتوى:

من أكثر الصحابة فتوى مطلقاً سبعة عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة رضوان الله عليهم. قال ابن حزم: يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد من هؤلاء مجلد ضخم[١]. قال: ويليهم عشرون وهم: أبو بكر وعثمان وأبو موسى ومعاذ وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص وسلمان وجابر وأبو سعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعمران بن حصين وأبو بكرة وعبادة بن الصامت ومعاوية وابن الزبير وأم سلمة. قال: يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير.

قال: وفي الصحابة نحو من مائة وعشرين نفساً مقلّون في الفتيا جداً لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان والثلاث يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء صغير بعد البحث كأبي بن كعب وأبي الدرداء وأبي طلحة والمقداد وغيرهم.

١١ ـ أشهر ما صنف في الصحابة:

كان الصحابة والتابعون وأتباعهم يعرفون من له صحبة، وخاصة من عانى منهم نقل الحديث وروايته عن الرسول ﷺ، وكانوا يحفظون أسماء كثيرة منهم وقد حرص العلماء على حصرهم، وبيان مروياتهم

(١) الإصابة: ١/ ١٢.

وأحوالهم وأوطانهم وتاريخ وفاة كل منهم، وقد صنف في الصحابة نحو أربعين مؤلفاً منها:

١ ـ كتاب معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان في خمسة أجزاء للإمام علي بن عبد الله المديني (١٦١ ـ ٢٣٤ هـ)، ولكنه لم يكتب لهذا الكتاب الوصول إلينا.

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وسبق أن تكلَّمنا عنه.

٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: في خمسة مجلدات للمؤرخ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد (ابن الأثير) (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ)، طبع هذا الكتاب في مصر، وفيه (٧٥٥٤) سبعة آلاف ترجمة وخمسمائة ترجمة وأربع وخمسون ترجمة.

٤ ـ تجريد أسماء الصحابة: في جزئين للإمام الحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ)، وقد طبع بالهند سنة (١٣١٠ هـ).

٥ ـ الإصابة في تمييز الإصابة: وهي لصاحب هذه الترجمة ـ شيخ الإسلام ابن رحمه الله ـ وقد تكلّمنا عنه تحت عنوان مؤلفاته.

* * *

وجملة القول أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله عزّ وجلّ لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه... فحفظوا عنه ﷺ ما

بلغهم عن الله عز وجلّ وما سن وشرع. . . ففقهوا الدين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده. . . وشرفهم الله عزّ وجلّ بما من عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة ـ فنفي عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والفخر، وسماهم عدول الأمة قال تعالى: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1]، والوسط: العدل، فكانوا عدول الأمة، وأئمة الهدى، وحجج الدين، ونقلة الكتاب والسنة.

١٢ ـ الطبقة الثانية ـ التابعون:

التابعي هو من لقي واحداً من الصحابة فأكثر، وقال بعضهم، يكفي مجرد الالتقاء، بخلاف الصحابي، فقد اكتفي فيه بذلك، لشرف لقاء النبي ﷺ، والاجتماع به، أو لرؤيته، فإن لذلك أثراً كبيراً في إصلاح القلوب وتزكية النفوس، مما لا يتهيأ لمن يلقى الصحابي من غير متابعة له، وطول أخذ عنه.

ولكن أكثر المحدثين يرون أن التابعي هو من لقي واحداً من الصحابة فأكثر، وإن لم يصحبه، وعدوا من التابعين بعض من رأى صحابياً من غير أن يصحبه، وهذا إقرار منهم بأن التابعي من رأى الصحابي.

واشترط ابن حبان أن يكون رآه في سن من يحفظ عنه، أي أن يكون مميزاً، فإن كان صغيراً لم يحفظ عنه فلا عبرة برؤيته، قال العراقي:

---

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣.

وما اختاره ابن حبان له وجه، كما اشترط في الصحابي رؤيته وهو مميز، قال: وقد أشار النبي ﷺ إلى الصحابة والتابعين بقوله: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبي لمن رأى من رآني»[1]، فاكتفى فيهما بمجرد الرؤية[2].

٢ ـ وعدد التابعين يفوق الحصر، لأن كل من رأى صحابياً كان من التابعين، وقد توفي رسول الله ﷺ عن نيف ومائة ألف من الصحابة، وحلوا إلى مختلف البلدان، وانتشروا في جميع الآفاق، ورآهم ألوف الأتباع.

٣ ـ والتابعون طبقات، جعلها الحاكم النيسابوري خمس عشرة طبقة، آخرهم من لقي أنس بن مالك من أهل البصرة، ومن لقي عبد الله بن أبي أوفى من أهل الكوفة، ومن لقي السائب بن يزيد من أهل المدينة، ومن لقي عبد الله بن الحارث بن جزء من أهل مصر، ومن لقي أبا أمامة الباهلي من أهل الشام[1].

وقد اتفق أئمة الإسلام على أن آخر عصر التابعين هو حدود سنة خمسين ومائة من الهجرة، وأن سنة (٢٢٠ هـ) آخر عصر أتباع التابعين.

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن بسر، وله طرق أخرى. الفتح الكبير: ٢/ ٢١٥.

(٢) فتح المغيث: ص ٤/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) معرفة علوم الحديث: ص ٤٢ ـ ٤٣.

٤ ـ ومن التابعين المخضرمون، وأحدهم مخضرم(٢)، وهو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ ولم يره. كأبي رجاء العطاردي، وسويد بن غفلة وغيرهم من التابعين، وقد عدّهم الحافظ برهان الدين سبط بن العجمي نيفاً وأربعين مخضرماً.

٥ ـ وقد اختلف المحدثون في أفضل التابعين، فقال أهل المدينة: أفضلهم سعيد بن المسيب، وقال أهل الكوفة: أفضلهم علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، وقال بعضهم: أويس القرني الزاهد، وقال أهل البصرة: الحسن البصري، وقال أهل مكة: عطاء ابن أبي رباح.

وكل هؤلاء أهل فضل وعلم، ويمكننا أن نلحق بهم كثيراً من أكابر التابعين، كعروة بن الزبير، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، وغيرهم.

ومن أكابر النساء من التابعين: حفصة بنت سيرين، وعمرة بنت عبد الرحمن، وأم الدرداء الصغرى الدمشقية، رضي الله عنهن أجمعين.

---

(٢) المخضرم ـ بفتح الراء ـ لغة: من قضى نصف عمره في الجاهلية، ونصفه في الإسلام أو من أدركهما، والناقص الحسب، والدعي ومن لا يعرف أبوه... واللحم المخضرم ـ الذي لا يعرف من ذكر أو أنثى... وناقة مخضرمة قطع طرف أذنها. وربما أطلق المحدثون ذلك لأن المخضرم عندهم أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ وأسلم ولم يره، فهو متردد بين الصحابة ـ لمعاصرته الرسول ﷺ ـ والتابعين لعدم لقائه الرسول ﷺ مع إمكان ذلك.

٦ ـ ومن أعلام التابعين الفقهاء السبعة بالمدينة، وهم سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان ابن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل سالم بن عبد الله بن عمر، وقيل أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. رضي الله عنهم أجمعين.

١٣ ـ الطبقة الثالثة ـ أتباع التابعين:

وهم الخلف الأخيار، وأعلام الأمصار في دين الله عز وجل ونقل سنن الرسول ﷺ وحفظه واتقانه، وهم العلماء بالحلال والحرام. هذا وقد مرت سنة المصنفين في هذا الفن أن يصنفوا الرواة إلى مراتب خمسة من حيث القبول أو الرد لمروياتهم. هي:

الطبقة الأولى: فمنهم الثبت الحافظ الورع المتقن الجهبذ الناقد للحديث ـ فهذا الذي لا يختلف فيه، ويعتمد على جرحه وتعديله، ويحتج بحديثه وكلامه في الرجال.

الطبقة الثانية: ومنهم العدل في نفسه، الثبت في روايته، الصدوق في نقله، الورع في دينه، الحافظ لحديثه، المتقن فيه، فذلك العدل الذي يحتج بحديثه ويوثق في نفسه.

الطبقة الثالثة: ومنهم الصدوق، الورع، الثبت الذي يهمُ أحياناً ـ وقد قبله الجهابذة النقاد، وهذا يحتج بحديثه.

الطبقة الرابعة: ومنهم الصدوق، الورع المغفَّل الغالب عليه الوهم والخطأ والغلط والسهو. فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب، ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام.

الطبقة الخامسة: والخامس بعد هؤلاء ـ هو من ألصق نفسه بهم، ودلسها بينهم ممن ليس من أهل الصدق والأمانة، ومن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال أولي المعرفة منهم ـ الكذب. فهذا يترك حديثه ويطرح روايته[1].

أئمة النقد للرواة: هذا وقد عرّف جماعة من علماء السلف بأنهم أئمة الجرح والتعديل وهم طبقات أيضاً. ومن أولئك العلماء الجهابذة، وهم قدوة في الدين ونقاد لناقلة الآثار.

فمن الطبقة الأولى: بالحجاز، الإمامان مالك بن أنس وسفيان بن عيينة.

وبالعراق الأئمة: سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وحماد بن زيد.

وبالشام: الإمام عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي وبذلك وردت شهادات الإعلام منهم عبد الرحمن بن مهدي قال: أئمة الناس في زماننا أربعة.

سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة.

---

(١) الرازي: الجرح والتعديل، المقدمة ١ ـ ١٠.

الفصل الخامس

١ ـ قاعدة في المؤرخين
٢ ـ علم الجرح والتعديل
٣ ـ رتبة الجرح والتعديل
٤ ـ مذهب ابن حجر في الجرح والتعديل
٥ ـ تعارض الجرح والتعديل
٦ ـ نبذة عن التدليس عند علماء مصطلح الحديث
٧ ـ الفرق بين تدليس الإسناد والإرسال
٨ ـ حكم تدليس الإسناد
٩ ـ حكم تدليس التسوية

١ ـ قاعدة في المؤرخين:

لما كان تأريخ الرجال وخاصة رواة الحديث منهم يدخل ضمن إطار المباحث التاريخية، لذلك كان لا بد من عرض مقالة أهل الاختصاص بهذا الشأن عنيت ما ذكره الإمام تاج الدين السبكي (٧٧١ هـ) صاحب الطبقات المشهورة حيث قال:

إن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا أناساً إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك من الأسباب.

والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب، قل أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك. والرأي عندنا (السبكي) أن لا يقبل مدح، ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة ـ والده ـ حيث قال يشترط في المؤرخ:

١ ـ الصدق.

٢ ـ إذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى.

٣ ـ وأن يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة، وكتبه بعد ذلك.

٤ ـ وأن يسمى المنقول عنه، فهذه شروط أربعة فيما ينقله.

ويشترط فيه **أيضاً**: لما يترجمه من عند نفسه، ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر.

١ ـ أن يكون عارفاً بحال الترجمة، علماً وديناً وغيرهما من الصفات.

٢ ـ أن يكون حسن العبارة، عارفاً بمدلولات الألفاظ.

٣ ـ أن يكون حسن التصور، حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه، ولا تنقص عنه.

٤ ـ أن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الأطناب في مدح من يحبه، والتقصير في غيره.

بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز. وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه، ويسلك طريق الإنصاف.

وأصعب هذه الشروط الاطلاع على حال الشخص في العلم، فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه والقرب منه حتى يعرف مرتبته[1].

٢ ـ علم الجرح والتعديل:

نقدم لهذا البحث بعبارة ابن دقيق العيد (أعراض المسلمين حفرة من حفر النار، وقف عليها المحدثون والحكام)[1]. نقول: وعلى الرغم من ذلك فلا بد صيانة لحديث رسول الله ﷺ من الخوض في هذا الميدان فنقول: هو علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة، وعند مراتب تلك الألفاظ.

والجرح في اللغة: مصدر من جَرَحَهُ يَجرحُهُ، إذا أحدث في بدنه

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ١ ـ ١٩٧.
(١) الاقتراح: ص/ ٣٤٤.

جرحاً يسمح بسيلان الدم منه، ويقال جرح الحاكم وغيره الشاهد إذا عثر منه على ما تسقط به عدالته من كذب وغيره.

والجرح اصطلاحاً: هو ظهور وصف في الراوي يثلم عدالته أو يخل بحفظه وضبطه، مما يترتب عليه سقوط روايته أو ضعفها وردها، والتجريح وصف الراوي بصفات تقتضي تضعيف روايته، أو عدم قبولها.

والعدل لغة: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور.. ورجل عدم مقبول الشهادة.. وتعديل الرجل تزكيته[٢].

والعدل اصطلاحاً: هو من لم يظهر في أمر دينه ومروءته ما يخل بهما، فيقبل لذلك خبره وشهادته إذا توفرت فيه بقية الشروط التي ذكرناها في أهلية الأداء[٣].

والتعديل وصف الراوي بصفات تزكية فتظهر عدالته ويقبل خبره.

وعلى هذا، فعلم الجرح والتعديل: هو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث قبول رواياتهم أو ردّها. وهو من أهم علوم الحديث، وأعظمها شأناً، وأبعدها أثراً، إذ به يتميز الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود، لما يترتب على مراتب كل من الجرح والتعديل من أحكام مختلفة.

---

(٢) لسان العرب مادة (عدل): ١٣/٤٥٦.
(٣) أصول الحديث. د. عجاج: ص/٢٢٩.

٣ ـ رتبة الجرح والتعديل:

هذا العلم من فروع علم رجال الحديث، والكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً ثابت عن رسول الله ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، جوز ذلك تورعاً وصوناً للشريعة لا طعناً في الناس، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة، والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال[١].

وقال ابن عبد البر: هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها من ذلك، والصحيح في هذا أن من صحت عدالته وثبتت في العلم أمانته، وبانت ثقته وعنايته بالعلم لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته بينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات. والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب قوله من جهة الفقه والنظر.

وأما من لم تثبت إمامته، ولا عرفت عدالته، ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته فإنه ينظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه، ويجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر إليه.

والدليل على أنه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين إماماً في الدين، قول أحد من الطاعنين، أن السلف رضوان الله عليهم قد سبق من بعضهم كلام كثير في حال الغضب، ومنه ما حمل على

---

(١) كشف الظنون: ١/ ٣٩٠.

الحسد، كما قال ابن عباس استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها وفي قوله له: خذوا العلم حيث وجدتم، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة.

ومثل هذا القول نقل عن مالك بن دينار وأبي حازم الذي قال: سمعت أبي يقول: العلماء كانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العالم من فوقه في العلم كان ذلك يوم غنمية. وإذا لقي من هو مثله ذاكره.

وإذا لقي من هو دونه لم يزه عليه، حتى كان هذا الزمان، فصار الرجل يعيب من فوقه ابتغاء أن ينقطع منه حتى يرى الناس أنه ليس بحاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهي على من هو دونه فهلك الناس.

ومنه ما حمل على جهة التأويل مما لا يلزم القول فيه ما قاله القائل فيه. وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف تأويلاً واجتهاداً لا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة توجبه[1].

قال العز بن عبد السلام: تحت فصل البدع ما نصه: البدعة فعل ما لم يعهد في عصر الرسول ﷺ. وبعد تقسيمه البدع: إلى بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة.. قال: وللبدع الواجبة أمثلة، منها:

---

(١) الجامع: ٢/ ١٨٧.

الكلام في الجرح والتعديل لتمييز الصحيح من السقيم، وقد دلت قواعد الشريعة على أن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على القدر المتعين، ولا يتأتى حفظ الشريعة بما ذكرناه.

واستدرك السخاوي على هذا القول بما يلي: وإدراجه لذلك (الجرح والتعديل) في البدع ليس بجيد فقد قال رسول الله ﷺ: «نعم الرجل عبد الله»[1]، وقال: «وبئس أخو العشيرة»[2]. في أشياء لذلك في الطرفين منها مما أورده الدارقطني في (العلل) من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة رفعه: إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره به فإنه تزداد رغبته في الخير، وقال: إنه لا يصح عن الزهري، وروى عن ابن المسيب مرسلاً ومنها ما للطبراني بسند ضعيف من حديث أسامة بن زيد رفعه «إذا مدح المؤمن رَبا الإيمان في قلبه»[3].

---

(٢) قواعد الأحكام: ١/ ٢٠٤.

(١) رواه البخاري في: (٦٢) كتاب فضائل الصحابة ـ (١٩) باب مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ـ حديث رقم: (٣٧٣٩).

(٢) رواه البخاري في: (٧٨) كتاب الأدب ـ (٤٨) باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب.
ورواه مسلم في: (٤٥) كتاب الأدب ـ (٢٢) باب مداراة من يتقي فحشه ـ حديث رقم: (٧٣).
ورواه مالك في الموطأ: (٤٧) كتاب حسن الخلق ـ (١) باب ما جاء في حسن الخلق ـ حديث رقم: (٤).
ورواه أحمد في «مسنده»: ٦/ ٣٨، ٨٠، ١٥٨، ١٧٣.

(٢) السخاوي ـ الإعلان بالتوبيخ: ص/ ٤٨.

٤ ـ مذهب ابن حجر في الجرح والتعديل:

لم يفصح ابن حجر عن منهجه في علم الجرح والتعديل، وربما ذكره اكتفى بما ذكره في مقدمة كتابه «لسان الميزان»، والذي جاء فيه قوله: إن كان الجرح مفسراً قبل وإلا عمل بالتعديل، وعليه يحمل قول من قدم التعديل كالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره. فأما من جهل حاله ولم يعلم فيه سوى قول إمام من أئمة الحديث إنه ضعيف أو متروك، أو ساقط، أو لا يحتج به ونحو ذلك فإن القول قوله ولا نطالبه بتفسير ذلك، إذ لو فسره كان غير قادح لمنعنا جهالة حال ذلك الرجل من الاحتجاج به كيف وقد ضعف.

وممن ينبغي أن يتوقف في قبول قوله في الجرح من كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد.

ويلتحق بذلك ما يكون سببه المنافسة في المراتب، فكثيراً ما يقع بين العصرين الاختلاف والتباين لهذا وغيره، فكل هذا ينبغي أن يتأنى فيه ويتأمل، هذا في الجرح.

وأما في التعديل فيقول:

ينبغي أن يتأمل أيضاً أقوال المزكين ومخارجها، فقد يقول العدل: فلان ثقة، ولا يريد به أنه ممن يحتج بحديثه، وإنما ذلك على سبيل ما هو فيه ووجه السؤال له.

فقد يسأل عن الرجل الفاضل المتوسط في حديثه فيقرن بالضعفاء فيقال: ما تقول في فلان وفلان وفلان؟ فيقول: فلان ثقة، يقول إنه ليس من نمط من قرن به.

فإن سئل عنه بمفرده بين حاله في التوسط، ومثل لهذه المسألة بقوله: فمن ذلك، أن الدوري قال عن ابن معين إنه سئل عن ابن إسحاق وموسى بن عبدة الربذي، أيهما أحب إليك؟

فقال: ابن إسحاق ثقة.

وسئل عن محمد بن إسحاق بمفرده؟

فقال: صدوق وليس بحجة.

وإذا جرح الرجل بكونه أخطأ في حديث، أو وهم، أو تفرد، لا يكون ذلك جرحاً مستقراً ولا يرد به حديثه. ومثل هذا إذا ضعف الرجل في سماعه من بعض شيوخه خاصة فلا ينبغي أن يرد حديثه كله لكونه ضعيفاً في ذلك الشيخ. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا روى الثقة حديثاً وإن لم يروه غيره فلا يقال له شاذ، إنما الشاذ أن يروي الثقات حديثاً على وجه، فيرويه بعضهم فيخالفه فيقال شذ عنه. وعقب ابن حجر على هذا الرأي بقوله: وهذا صواب، ومع ذلك فلا يخرج الرجل بذلك عن العدالة لأنه ليس بمعصوم من الخطأ والوهم إلا إذا بين له خطأه فأصر[1].

وقال الشافعي رحمه الله في الرسالة: ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة ـ يعني بذلك خبر الواحد ـ حتى يجمع أموراً:

أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل من معاني الحديث من الألفاظ.

---

(١) الميزان: ١/ ١٥ ـ ١٨.

وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه لما سمعه، لا يحدث به على المعنى، فإنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه: لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام، أو الحرام إلى الحلال.

وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يخاف منه إحالة الحديث، حافظاً إن حدث بحروفه من حفظه، حافظاً للكتابة إن حدث من كتابه، إذا أشرك أهل الحفظ في الحديث وافقهم بريئاً من أن يكون مدلساً يحدث عمن لقي ما لم يسمع منه، أو يحدث عن النبي ﷺ بما يحدث الثقات خلافه، ويكون كذلك حكم من فوقه ممن حدثه حتى ينتهي الحديث موصولاً إلى النبي ﷺ أو إلى من انتهى به إليه دونه لأن كل واحد منهم ثبت لمن حدثه، وشاهد على من حدث عنه فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت[1].

وبعد أن ساق كلام الإمام الشافعي بتمامه نقلاً عن الرسالة عقب قائلاً:

قلت: لا خلاف بين الأئمة في اشتراط هذه الشروط إن جوزنا الرواية بالمعنى، وقد تضمن هذا الفصل من كلام الشافعي جميع الشروط المتفق عليها بين أهل الحديث في حد من تقبل روايته.

وأما من شرط العدد، فهو قول شاذ مخالف لما عليه الجمهور، بل تقبل رواية الواحد إذا جمع أوصاف القبول، وكذا من يشترط أن يكون فقيهاً عالماً فهو خلاف ما عليه الجمهور، وحجتهم قول الله تعالى:

---

(١) الشافعي: الرسالة ٣٧٢، تحقيق شاكر.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾[٢]، معناه: أن لا يتبين في خبر الفاسق ولو لم يكن عالماً.

وفي قوله ﷺ: «نضر الله أمر أسمع مقالتي فوعاها»[١]، الحديث أقوى دليل على ذلك، لأنه ﷺ لم يفرق بل صرح بقوله: فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

وكذا قول من شرط أن يكون مشهوراً بسماع الحديث ومعرفة نسب الراوي، وأن لا ينكر راوي الأصل رواية الفرع عنه على وجه النسيان، فكل هذه الشروط مخالفة لما عليه الجمهور[٢].

٥ ـ تعارض الجرح والتعديل:

قد تتعارض أقوال العلماء في تعديل راو واحد وتجريحه، فيجرحه بعضهم ويعدله آخرون، وحينئذ لا بد من البحث لمعرفة حقيقة ذلك.

فقد يكون بعضهم عرفه بفسق قديم وقع منه فخرجه، ثم تاب وعلمت توبته لمن عدله، فلا يكون هناك تعارض بين القولين.

---

(٢) سورة الحجرات آية: ٦.

(١) رواه أبو داود في: (٢٤) كتاب العلم ـ (١٠) باب فضل نشر العلم ـ حديث رقم: (٣٦٦٠).

ورواه الترمذي في: (٣٩) كتاب العلم ـ (٧) باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ـ حديث رقم: (٢٦٥٦).

ورواه ابن ماجه في «المقدمة» ـ باب (١٨) ـ حديث رقم: (٢٣١، ٢٣٢).

ورواه أحمد في المسند: ١/ ٤٣٧، ٣/ ٢٢٥، ٤/ ٨٠، ٨٢، ٥/ ١٨٣.

(٢) ابن حجر ـ لسان الميزان: ١/ ١٦ ـ ٢٠.

وقد يعرف بسوء حفظ عن شيخ لم يكتب عنه لاعتماده على ذاكرته، في حين أنه موثوق به، حافظ عن غير هذا الشيخ لاعتماده على كتبه مثلاً، فلا يكون هناك تعارض بين ذاك الجرح وهذا التوثيق. فإذا عُرِفَ كل ذلك أمكن للعالم أن يخلص مخلصاً حسناً، في ترجيح بعض الأقوال على بعض، وإذا لم يعلم تفصيل ما ذكرنا كان هناك تعارض بين الجرح والتعـديـل. وللعلماء في هذا ثلاثة أقوال:

القول الأول:

تقديم الجرح على التعديل ولو كان المعدلون أكثر من الجارحين، لأن الجارح اطلع على ما يطلع عليه المعدل وهذا قول الجمهور(١).

القول الثاني:

يقدم التعديل على الجرح إذا كان المعدلون أكثر من الجارحين، لأن كثرة المعدلين تقوي حالهم. وهذا القول مردود لأن المعدلين وإن كثروا لا يخبرون بما يرد قول الجارحين.

القول الثالث:

إن الجرح والتعديل إذا تعارضا لا يترجح أحدهما إلا بمرجح، أي

---

(١) فإخبار المعدل عن العدالة الظاهرة لا ينفي صدق قول الجارح فيما أخبر به، فكأن المعدل يقول: لا أعلم عن فلان ما يجرحه فهو ناف، والمجرح يقول: أعلم في فلان صفة كذا وهي تجرحه، فهو مثبت، ولا شك أن المثبت مقدم على النافي.

يتوقف عن العمل بالقولين حتى نطلع على مرجح لأحدهما.

والقول الأول هو الذي ذهب إليه المحدثون المتقدمون والمتأخرون.

٦ - نبذة عن التدليس عند علماء مصطلح الحديث:

أولاً: التعريف اللغوي للتدليس[1]:

الدَلَسْ: بالتحريك الظلمة كالدلسة بالضم والدلس اختلاط الظلام، ومنه قولهم أتانا دلس الظلام وخرج من الدلس والفلس، والدلس النبت يورق آخر الصيف أو الدلس بقايا النبت والبقل.

والتدليس في البيع كتمان عيب السلعة عن المشتري. قال الأزهري: ومنه أخذ التدليس في الإسناد: وهو مجاز. وهو أن يحدث الشيخ الأكبر، ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه أو ممن سمعه منه ونحو ذلك ونص الأزهري، وقد رآه إلا أنه سمع ما أسنده إليه من غيره من دونه وفي الأساس: المدلس في الحديث ومن لا يذكر في حديثه من سمعه منه، ويذكر الأعلى موهماً أنه سمعه منه وهو غير مقبول وقد فعله جماعة من الثقات حتى قال بعضهم دلّس للناس أحاديثهم والله لا يقبل تدليساً والتدليس التكتم.

ثانياً: تعريف التدليس عند علماء مصطلح الحديث:

يقول الحافظ ابن حجر[1]: المدلس: بفتح اللام سمي بذلك لكونه

---

(١) تاج العروس للزبيدي: ٤/ ١٥٣.

(١) شرح نخبة الفكر: ص/ ١٨.

الراوي لم يسم من حدثه وأوهم سماعه للحديث ممن لم يحدث به، واشتقاقه من الدلس بالتحريك وهو اختلاط الظلام بالنور، وقد سمي بذلك لاشتراكهما في الخفاء.

ويقول الحافظ العراقي(٢): التدليس على ثلاثة أقسام ذكر ابن الصلاح منها قسمين فقط.

القسم الأول: تدليس الإسناد، وهو أن يسقط اسم شيخه الذي سمع منه، ويرتقي إلى شيخ شيخه أو من فوقه فيسند ذلك إليه بلفظ لا يقتضي الاتصال بل بلفظ موهم له كقوله (عن فلان) أو (أن فلان) أو (قال فلان) موهماً بذلك أنه سمعه ممن رواه عنه، وإنما يكون تدليساً إذا كان المدلس قد عاصر المروي عنه أو لقيه ولم يسمع منه أو سمع منه ولم يسمع منه ذلك الحديث الذي دلّسه عنه، وقد فهم هذا الشرط من قوله (يوهم اتصالاً) وإنما يقع الإيهام من المعاصرة وقد حده أبو الحسن بن القطان في كتابه (بيان الوهم والإيهام) بأن يروي عمن قد سمع منه ما لم يسمع منه من غير أن يذكر أنه سمعه منه.

٧ ـ الفرق بين تدليس الإسناد والإرسال:

هو أن الإرسال روايته عمن لم يسمع منه، وقد سبق ابن القطان إلى حده بذلك الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ذكر ذلك في جزء له في معرفة من يترك حديثه أو يقبل، أما إذا روى عمن لم يدركه بلفظ موهم، فإن ذلك ليس بتدليس على الصحيح المشهور،

---

(٢) شرح ألفية الحديث: ص/ ٨٣.

وحكى ابن عبد البر في «التمهيد» عن قوم أنه تدليس فجعلوا التدليس أن يحدّث الرجل عن الرجل بما لم يسمعه منه بلفظ لا يقتضي تصريحاً بالسماع وإلا لكان كذباً، قال ابن عبد البر: وعلى هذا فما سلم من التدليس أحد لا مالك ولا غيره، فقوله في البيت الثاني (وقول) معطوف (بعن وان) أي بهذه الألفاظ الثلاثة ونحوها.

ومثله أن يسقط أداة الرواية ويسمي الشيخ فقط فيقول: فلان وهذا يفعله أهل الحديث كثيراً.

قال علي بن خشرم: كنا عند ابن عيينة فقال الزهري: فقيل له حدثكم الزهري فسكت، ثم قال: الزهري، فقيل له سمعته من الزهري، فقال لا، لم أسمعه من الزهري، ولا ممن سمعه من الزهري، حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري، وقد مثل ابن الصلاح للقسم الأول بهذا المثال.

٨ ـ حكم تدليس الإسناد:

قال البزار: إن كان من يدلس عن الثقات كان تدليسه عند أهل العلم مقبولاً، ثم قال: فمن كانت هذه صفته وجب أن يكون حديثه مقبولاً وإن كان مدلساً. وقال ابن الصلاح: إنه صرح بالاتصال كقوله: «سمعت» و«حدّثنا» و«أنبأنا» فهو مقبول له محتج به، وإن أتى بلفظ محتمل فحكمه حكم المرسل.

أما شعبة فقد ذمه فبالغ في ذمه وإلا فقد أكثر العلماء وهو مكروه جداً. فروى الشافعي عن شعبة قال: التدليس أخو الكذب. وقال: لأن

أزني أحب إلي من أن أدلس، قال ابن الصلاح: وهذا من شعبة إفراط محمول على المبالغة في الزجر عنه والتنفير.

ثانياً: تدليس الشيوخ:

هو أن يروي الراوي عن شيخ حديثاً سمعه منه، فيسميه أو يكنيه أو ينسبه أو يصفه بما لا يعرف به كي لا يعرف.

كقول أبي بكر بن مجاهد أحد أئمة القراء. حدثنا عبد الله بن أبي عبد الله يريد به عبد الله بن أبي داود السجستاني. ونحو ذلك قاله ابن الصلاح، وفيه تضييع للمروي عنه. قلت: ومن أمثلة من كانوا يدلسون الشيوخ مروان[1] بن معاوية الفـزاري.

---

(١) مروان بن معاوية القراري، كان مشهوراً بالتدليس، وكان يدلس الشيوخ أيضاً، وصفه الدارقطني بذلك.
قلت: وممن وصفه بالتدليس أيضاً يحيى بن معين قال: ما رأيت أحيل للتدليس منه (يعني شديد الحيلة في تلمسه)، وهذه واحدة مما اتُهم به غير أنه اتهم أيضاً بتدليس الشيوخ، فكان يقلب الأسماء ويغيرها يُعمّي على الناس. فكان يحدث عن الحكم بن أبي خالد، وإنما هو حكم بن طهير لذلك فقد وثقه من وثقوه فيما يروي فقط عن المعروفين وضعفوه فيما يروي عن المجهولين، وممن وثقوه على هذا الأساس: العجلي.
وقد اتُهم أيضاً بكثرة روايته عن الشيوخ المجهولين وممن وثقوه: ابن معين وابن سعد.
أخرجه الذهبي في «الميزان» (٤ / ٩٣ ـ ٩٤)، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٩٦).

حكم تدليس الشيوخ:

فكراهته أخف من تدليس الإسناد لأن المدلس لم يسقط أحداً، وإنما الكراهية بسبب تضييع المروي عنه، وتوعير طريق معرفته على السامع، وتختلف الحال في كراهته بحسب الغرض الحامل عليه.

ثالثاً: تدليس التسوية:

وهو القسم الثالث من أقسام التدليس الذي لم يذكره ابن الصلاح وصورته: أن يروي حديثاً عن شيخ ثقة وذلك الثقة يرويه عن ضعيف عن ثقة، فيأتي المدلس الذي سمع الحديث من الثقة الأول فيسقط الضعيف الذي في السند، ويجعل الحديث عن شيخه الثقة عن الثقة الثاني بلفظ محتمل فيستوي الإسناد كله ثقات.

وممن كان يسوي الإسناد: محمد[1] بن مصطفى، وصفوان[2] ابن

---

(١) هو على الأصح محمد بن مصطفى بن بهلول القرشي (أبو عبد الله الحمصي الحافظ) روي عن أبيه وبقية بن الوليد وأبي ضمرة ومحمد بن حرب الخولاني والوليد بن مسلم وغيرهم وروي عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأبو زرعة وأبو حاتم وغيرهم.

قال أبو حاتم: صدوق. وقال النسائي: صالح. وقال صالح بن محمد: كان مخلطاً وأرجو أن يكون صدوقاً وحدث بمناكير، وقال ابن حبان: كان يخطىء.

قال أبو زرعة الدمشقي: محمد بن مصطفى كان ممن يدلس تدليس التسوية. تهذيب (٩/ ٤١٦)، (٤/ ٤٢٧).

وقد ساق ابن حجر هذا القول لأبي الحسن بن جوصا عن أبي زرعة ساقه في «تهذيب التهذيب» (٤/ ٤٢٧) تحت ترجمة صفوان بن صالح.

(٢) صفوان بن صالح بن دينار الدمشقي أبو عبد الملك المؤذن، وثقه أبو داود =

صالح، وبقية[٣] بن الوليد.

= وغيره، ونسب إلى التسوية، وكان مؤذن المسجد الجامع بدمشق مولى عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، روي عن خالد بن يزيد الأزرق، وسعيد بن المفضل بن ثابت المصري، وأحمد بن حنبل، قال أبو زرعة الدمشقي: أخبرنا أن مولده سنة ثمان أو تسع وستين ومائة ومات سنة سبع وثلاثين ومائتين. روى له الترمذي والنسائي وابن ماجه في التفسير.

(٣) بقية بن الوليد الحمصي المحدث المشهور المكثر، له في مسلم حديث واحد، وكان كثير التدليس عن الضعفاء والمجهولين، وصفه الأئمة بذلك.
قال ابن المبارك صدوق، لكن يكتب عمن أقبل وأدبر، وقالوا بقية ثقة، إذا حدّث عن الثقات، وروايته عن أهل الشاعر ثبت فيها، وإذا قال حدثنا وأخبرنا فهو ثقة، رواه النسائي.
رمي بالتدليس، فإذا قيل عن فليس بحجة، أما هو في شعبة ومالك فأحاديثه مستقيمة كما قال ابن حبان، ثم سمع من أقوام كذابين عن شعبة ومالك، فروي عن الثقات بالتدليس ما أخذ عن الضعفاء.
قال أبو حاتم: لا يحتج به، وقدح فيه الجوزجاني فقال: رحم الله بقية؛ ما كان يبالي وإذا وجد خرافة عمن يأخذه، فإن حدث عن الثقات فلا بأس به.
وقال أحمد بن حنبل توهمت أن بقية لا يحدث المناكير إلا عن المجاهيل، فإذا هو يحدث المناكير عن المشاهير فعلمت من أين أُتي.
قلنا وتتبعه ابن حبان فرآه ثقة مأمون لكنه مدلس يدلس عن عبيد الله بن عمر وشعبة ومالك. وقال أيضاً ابن حبان ما أخذ عن مثل المجاشع بن عمرو والسري بن عبد الحميد، وعمر بن موسى المتيمي وأشباههم، فروي عن أولئك الثقات الذين رآهم ما سمع من هؤلاء الضعفاء عنهم، فكان يقول: قال عبيد الله، وقال مالك، فحملوا عن بقية عن عبيد الله وبقية عن مالك، وأسقط الواهي بينهما فالتزق الوضع ببقية وتخلص الواضع من التوسط.
وثقه ابن معين إذا حدث عن المعروفين، وأخذ عليه أن له مشايخ غير معروفين. =

. . . .

ساق له ابن حبان حديثاً دلسه وسوى سنده قال: حدثنا سليمان بن محمد الخزاعي ـ بدمشق ـ حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً:

«من أدمن على حاجبيه بالمشط عُوفي من البلاء». قال: وهذا من نسخة كتبناها بهذا الإسناد كلها موضوعة يشبه أن يكون بقية سمعه من إنسان واهٍ عن ابن جريج، فدلس عنه والتزق به.

قال ابن حبان وبه ـ أي بالإسناد السابق ـ إلى النبي ﷺ: «إذا جامع أحدكم زوجته فلا ينظر إلى فرجها، فإن ذلك يورث العمى» وبه: قال عليه الصلاة والسلام: «ترِّبوا الكتاب وسحوه من أسفله فإنه أنجح للحاجة». وبه: «من أصيب بمصيبة فاحتسب ولم يشك إلى الناس كان حقاً على الله أن يغفر له».

وأضاف إليهما ابن أبي حاتم في كتابه «العلل» (٤٣٩٤) حديثاً: «لا تأكلوا بهاتين الإبهام والمشيرة ولكن كلوا بثلاث فإنها سنّة ولا تأكلوا بخمس إنها أكلة الأعراب».

قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذه الثلاث الأحاديث موضوعة لا أصل لها، وكان بقية يدلس قطن هؤلاء أنه يقول في كل حديث حدثنا ولم يفتقدوا الخبر منه.

وساق الذهبي حديثاً عن رواية أحمد بن يونس الحمصي، أنبأنا الوليد بن مسلم عن بقية، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: «رخص رسول الله ﷺ في دم الحبون» أي الدماميل.

وساق له من رواية هشام بن عبد الملك، أنبأنا بقية، حدثني مالك بن أنس، عن عبد الكريم الهمداني عن أبي حمزة قال: سئل النبي ﷺ عن رجل نسي الأذان والإقامة، فقال: «إن الله تجاوز عن أمتي السهو في الصلاة». قال الذهبي: عبد الكريم هو الجزري وأبو حمزة هو أنس ابن مالك، حدثناه عبدان وعمر بن سنان قالا حدثنا هشام قال: قلت هذا لا يحتمل وقد رواه الوليد ابن عتبة عن بقية، حدثنا عبيد ـ رجل من همدان ـ عن قتادة، عن أبي حمزة، عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله!. =

الرجل ينسى الأذان والإقامة. . . الحديث.
قال: فهذا محتمل وعبيد لا يعرف.
وساق الذهبي حديث رواه بقية أنبأنا مالك بسنده مرفوعاً: «انتظار الفرج عبادة». قال هذا باطل عن مالك.
وذكر من مناكير بقية: حديث أبي أُمامة مرفوعاً: «بينما الخضر يمشي في سوق بني إسرائيل. . . الحديث بطوله». ونقل عن محمد بن عوف وضعه وعن أبي زرعة أنه منكر.
فقد قال ابن عدي: لا أعلم رواه عن بقية غير سليمان ابن عبيد الله الرقي وقد ادعاه عبد الوهاب بن ضحاك العرضي وهو منهم.
وروايته «من أدرك ركعة من الجمعة وتكبيرتها فقد أدرك الصلاة». رواه بقية عن يونس عن الزهري عن سالم عن ابن عمر مرفوعاً (به).
غير أنه شذ فخالف الثقات عن الزهري؛ قالوا عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وما فيه من الجمعة (قلت) وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل (١/ ٦٠٧) وقال: سمعت أبي يقول: هذا خطأ إنما هو الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة.
وروايته (نهى عن طعام المتبارين). رواه بقية حدثني ابن المبارك عن جرير بن حازم عن الزبير بن الخرِّيت عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.
قال الذهبي: صوابه مرسل.
وروايته «أنه ـ أي النبي ﷺ ـ تسليمة».
رواه عن الزبيدي عن الزهري عن سالم عن أبيه رفعه.
وروايته: «يُحشر المكارون وقتلة الأنفس إلى جهنم في درجة واحدة».
رواه بقية عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن أبي هريرة مرفوعاً.
وروايته «لا نكاح إلا بإذن الرجل والمرأة».
رواه بقية عن عبد الله بن عمر عن أبي الزناد عن ابن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً.
وروايته «لا تساكنوا الأنباط في بلادهم ولا تناكحوا الخزر فإن لهم أصولاً =

٩ ـ حكم تدليس التسوية :

هو شر أقسام التدليس لأن الثقة الأول قد لا يكون معروفاً بالتدليس، ويجده الواقف على السند كذلك بعد التسوية، قد رواه عن ثقة آخر فيحكم له بالصحة وفي هذا غرور شديد.

وقال العلائي في جامع التحصيل: وبالجملة فهذا النوع أفحش أنواع التدليس مطلقاً وشرها.

تدعوهم إلى غير الوفاء». رواه بقية قال شريك عن كليب بن وائل عن ابن عمر مرفوعاً.

قال الذهبي: وهذا منكر وقد دلسه عن شريك. وروايته «اقرأوا القرآن بلحون أهل العرب... الحديث». رواه بقية عن الحر بن مالك القراري عن أبي محمد عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً. قال محمد بن عوف: روى هذا الحديث شعبة عن بقية.

وروايته «يربّ هذا العلم من خلف عدوله ينفعون عنه تعريف الغالين... الحديث».

رواه بقية عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرفوعاً.

وروايته «من تكفل لي إلاّ يسأل امرأ شيئاً أتكفل له بالجنة».

رواه بقية حدثنا شعبة حدثني عاصم الأحول عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان مرفوعاً. وروايته: «السبّاق أربعة: أنا سابق العرب، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس».

رواه بقية أنبأني أبي عن محمد بن زياد عن أبي أمامة مرفوعاً. قال أبو زرعة وأبو حاتم حديث باطل لا أصل له بهذا الإسناد.

وقد قال أبو داود أنبأنا أحمد قال: روى بقية عن عبيد الله مناكير، وقال ابن معين: إذا لم يسم بقية شيخه وكنّاه فاعلم أنه لا يساوي شيئاً.

قال ابن عدي: وبقية يخالف في بعض حديثه الثقات، وإذا روى عن أهل الشام فهو ثبت وإذا روى عن غيرهم خلط.

وهناك نوعان آخران قد ذكرهما الشيخ أحمد شاكر في كتابه «الباعث الحثيث» (٥٦) فقال: أولاً: تدليس العطف: كأن يقول «حدثنا وقال فلان» وهو لم يسمع من الثاني المعطوف وقد ذكر هشيم أنه فعله.

ثانياً: تدليس السكوت أو القطع كما سماه الحافظ ابن حجر: كان يقول «حدثنا» أو «سمعت» ثم يسكت، ثم يقول «هشام ابن عروة» أو «الأعمش» موهماً أنه سمع منهما وليس كذلك اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر نوعاً آخر وسماه تدليس الإجازة أو رده في ترجمة أبي داود الحافظ أنه حدث بحديثين عن شعبة، وكان قد صرح بأنه لم يسمعهما منه فقال الذهبي دلسهما عنه فقال ابن حجر... وإن ذكر صيغة صريحه فهو تدليس الإجازة... قلت ومثله تدليس أبي نعيم الحافظ.

وقال الحاكم النيسابوري[1]: التدليس عندنا على ستة أجناس:

الجنس الأول: من المدلسين من دلس عن الثقات الذين هم في الثقة مثل المحدث أو فوقه أو دونه إلا أنهم لم يخرجوا من إعداد الذين يقبل أخبارهم فمنهم من التابعين أبو سفيان طلحة بن نافع وقتادة بن دعامة وغيرهم.

الجنس الثاني: قوم يدلسون الحديث فيقولون قال «فلان» فإذا وقع إليهم من ينقر عن سماعاتهم ويلح ويراجعهم ذكروا فيه سماعتهم.

(١) معرفة علوم الحديث: ص ١٠٣ ـ ١١٤ بتلخيص.

الجنس الثالث: قوم دلسوا على أقوام مجهولين لا يدري من هم ومن أين هم.

الجنس الرابع: قوم دلسوا أحاديث رووها عن المجروحين فغيروا أساميهم وكناهم كي لا يعرفوا.

الجنس الخامس: قوم دلسوا عن قوم سمعوا منهم الكثير وربما فاتهم الشيء عنهم فيدلسونه.

الجنس السادس: قوم رووا عن شيوخ لم يروهم قط ولم يسمعوا منهم، إنما قالوا قال فلان فحمل ذلك عنهم على السماع وليس عندهم عنهم سماع عال ولا نازل.

الفصل السادس

١ ـ رحلة في أدب ابن حجر
٢ ـ أغراض شعر ابن حجر
٣ ـ التشبيه في شعر شيخ الإسلام
٤ ـ من المعاني التي كررها في قصائده
٥ ـ قال يمدح النبي ﷺ ويذكر ختم السنن لأبي داود
٦ ـ بين شيخ الإسلام وشاعر الإسلام

١ ـ رحلة في أدب ابن حجر:

ذكر ابنُ العماد في شذرات الذهب[١]: أن بعضهم قال عن الحافظ ابن حجر: كان شاعراً طبعاً، محدثاً صناعة، فقيهاً تكلفاً.

وهذا أصدق مقياس يقاس به الشاعر؛ ذلك أنه يعلو وعلوه محدود، ويهبط حتى لا يتساوى مع عامة الناس.

ولا تستطيع أن تعترف له بشاعرية مطلقة، ذلك لندرة بديعة، واحتذائه الغير، وتقليده. وإن بدا ذلك أحياناً لا سيما في مقدمات قصائده، ولا يعد في شعره متميزاً لجناس تحصل، أو تورية أتته دون تعمل؛ ومع ذلك فإنك واجد تلميذه البقاعي يشيد بأدبه، وكذا السخاوي. وقيل: إنه تقدم في الأدب حتى قال الحافظ الشيخ تقي الدين المقريزي: إن البدر البشتكي[٢] ـ وكان شيخ الأدب في زمانه قال: هذه الطريقة التي هي جادة ابن حجر وابن الدماميني، ما كانت تقع للمتقدمين إلا نادراً، هذا مع الدين المتين، والتخلق بأخلاق السنة، مع حداثة السن وكثرة الأموال. وقال السخاوي: ونظر في فنون الأدب من أثناء سنة اثنين وتسعين ففاق فيها حتى لا يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذه الناظم، وتولع بذلك، وما زال يتبعه

(١) عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران للبقاعي: ١/ ٩٣.

(٢) هو محمد بن ابراهيم بن محمد البدر أبو البقاء الأنصاري الدمشقي الأصل المصري الشاعر الشهير الظاهري، ولد سنة ٧٤٨ ومات سنة ٨٣٠ هـ. الضوء اللامع: ٦/ ٢٧٧.

خاطره حتى فاق فيه وساد، وطارح الأدباء، وقال الشعر الرائق، والنظم الفائق، ونظم مدائح نبوية، ومقاطع، وكتب عنه الأئمة من ذلك، وكان والله عجباً في استحضار ذلك والمذاكرة له، ثم قال: وهو لم ينظر من بعد القرن في كتب الفن ودواوينه اتفاقاً كما صرح هو بذلك، بل أكثر نظمه قبل سنة ست عشرة وثمان ومائة، وهو كلام صحيح إلا أننا نجد له شعراً بعد ذلك.

ثم مال بعد ذلك بمواهبه من طلب الأدب إلى طلب غيره من العلوم الأخرى، فطلب التاريخ والحديث والفقه، إلا أنه ظل يتردد بين الفينة والفينة على موائد الشعر، فيتفكه بمقطوعة، أو يتندر ببيتين يحلو له فيهما جناس، أو تورية، أو لغز، أو يطارح بعض شعراء عصره أو يمدح بعض من يسدي إليه جميلاً، أو يتغزل تقليداً لغيره أو يتشوق إلى وطنه إذا كان عنه نائياً.

وهكذا لم يقطع ابن حجر صلته بالأدب الخاص، ولا بالشعر الرقيق، وتدور أغراضه حول الإخوانيات، والمدح، والغزل. وقد كانت تأتيه الفتاوى، والأسئلة، والألغاز، منظومة فيرد عليها نظماً في كثير من الأحيان.

ونظم الشعر في رحلته إلى حلب سنة ٨٣٦ هـ. والحق الذي نطمئن إليه: أن ابن حجر حافظ حجة وهذا يكفيه شرفاً أن صرف همته لعمل أصلح الله به البلاد والعباد[١] ويأتيه الشعر بعد ذلك. ولو أفسح خياله

---

(١) قال الحافظ: إنه علم لا يعلق إلا بمن قصر نفسه عليه ولم يضم غيره من الفنون عليه. وقد كان رحمه الله بصيراً عالماً بغيره من العلوم، ولكن توهم =

الشعري، وسعى وراء ما ينميه ويذكي فيه تلك الموهبة الثمينة، وينشطها، ويقويها لأدرك من سبقه، ولأصبح فيه من أنبه شعراء عصره، وهكذا دائماً العلماء والشعر، وقد أشار هو إلى شيء من ذلك وبين الحين والآخر يطالعنا من شعره روح خفيفة، لا سيما في مطالعه الغزلية التي كانت في قصائده سنة مطردة، تعلوها رقة النسيم وحلاوته.

ويعده السيوطي[1] أحد السبعة الشهب من الشعراء وهم سبعة من الشعراء اشتهروا في القاهرة في وقت واحد، كل واحد منهم كان لقبه شهاب الدين وهم: ابن حجر، وابن شهاب النائب، وابن أبي السعود، وابن مبارك شاه، وابن صالح، والحجازي، والمنصوري[2].

٢ ـ أغراض شعر ابن حجر:

لا تختلف أغراض شعر ابن حجر عن الأغراض السائدة في عصره وتقسيم ديوانه شاهد على ذلك:

فالمدح من أهم أغراضه لا سيما إذا كان الممدوح خير خلق الله. لذلك حسن من الشاعر أن يجعل ديوانه مدح حبيبه ﷺ:

يـــا سيـــداً طـــالعـــه إن راق معنـــــاه فعد

البعض ممن لم يعلمه أنه لا يحسن علم اللغة، وقال العارف المخالط له: إن من قصره على هذا العلم (الحديث) ظلمه. ويكفي أن ننظر في قليل من علمه لندرك ذلك. مقدمة الذيل على رفع الأصر/ للسخاوي/.

(١) نظم العقيان: ص/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) بدائع الزهور: ٢/ ١٢٦.

وافتـــح لـــه بـــاب الـــرضـــى وإن تجـــد عيبـــاً فسد

ولقد أطال الشاعر في «النبويات» إذ هي تعد سجلاً حافلاً لسيرة رسول الله ﷺ، ومعجزاته، وشفاعته، وشجاعته، وإسرائه، وغزواته. وتبتدىء جميعها بالمطالع الغزلية التي تقرؤها فتعود بك إلى عهد الرقة المذابة، والعذوبة السائلة، مع صفاء ألفاظ في صفاء معان، وإشراق في التعبير ووضوح في الغرق.

يصف أثناء ذلك أشواقه، وتباريح الغرام به، وألم الهجر وعذابه، ونعيم الوصال وجماله. وهو بذلك يعطينا صورة لطيف الخيال ملموسة التصور عذرية العشق. فمقدمات قصائده ومطالعه من جيد ما يقال في فن الوصف ولما كان الحافظ من علماء العصر المشار إليهم، اتصل بالملوك والأمراء والأصحاب وتحدث عن أعمالهم ومدحهم وأشاد بجودهم، وتعد تلك القصائد نموذجاً لشعر الوصف، والمدح، والفخر، والشكوى، والرحلات والأسفار ووصف ما يعانيه فيها وتحدث عن الديار وربوعها وكيف أصبحت بعد ساكنيها وخاطب إخوانه، وأثنى على الكثيرين، وهجا وذم من خانه.

وللشاعر حديث طويل عن الجود والعطاء ذاك أنه طلب من الملوك بعض ذلك، والأمراء وأشاد بمكارمهم وعطاياهم، وقد تلون حديثه عن الكرم والندى والجود وأخذ صيغاً عديدة، ولبس أردية ذات ألوان كثيرة، وله في الغزل سبع قصائد سجل فيها المحبوب شكلاً، ورسمه بقلمه غصناً مياداً، لحظه سهم، ووجهه بدر، ولطالما تحدث عن الخال والعذار والحاجب وعمل العيون في القلوب. وهي قصائد جيدة يشوبها بعض التكلف.

وهو شاعر كثير الأشواق الى وطنه، وأصحابه، ومحبوبه، لذا تحدث عن أشواقه وحنينه باثاً لواعجه وأشجانه، متحدثاً عن أحزانه وآلامه. حديث السقيم المضني والمعذب المعني، إنه محب ما تجف دموعه، عاشق لم ينل رضى محبوبه سهران اللحظ مؤرق الجفن.

فيـا نسمـات الـريـح بـالله بلغـي
سـلامـي إلـى روحـي المقيمـة فـي داري
سليهـا تسـامـح مقلتـي بمنـامهـا
لتحظي بطيب الوصل من طيفها الساري
ولا تجـزيهـا عـن سقـامـي يسـوءهـا
ولا سهـري البـاقـي ولا دمعـي الجـاري
وقـولـي لهـا إنـي علـى عهـد حبهـا
مقيـم وإن لـم تطـو شقـة أسفـاري
رحـلات بـلا قلـب ولا أنـس ولا
لـذيـذ منـام وهـي أنيسـي وتـذكـاري

ولقد عقد قسماً في ديوانه للأغراض المختلفة كالتهاني، والإجابات، والحديث عن من خانه، والشكوى من بعض أصدقائه، وطلبه الاستشفاع لينال حظوة ورثاء شيخ الإسلام البلقيني وهي أطول قصائد الديوان. ورثاء شقيقته ولم يخلص ديوانه حتى ضمنه قسماً جديداً لم يهتم به غيره من الشعراء وهو قسم الموشحات وذلك اللون من الأدب فيه جدة وطرافة، وجرأة على القديم، وهو في الوقت ذاته يعلن عن اقتدار الشاعر، وتمكنه وانقياد الألفاظ له، وإن كان

موضوع الموشح لا يخرج عن الغزل في هذا الديوان. إلا أن الموشحات غزت كثيراً من الأغراض.

أما القسم الأخير من الديوان فهو بمثابة اللسان الحاضر، والنظر اللماح. ذلك أن مثل هذه المقاطيع وليدة الحالة الطارئة، والظروف العابرة. لذلك فقد مثلت كل صورة، وعرضت كثيراً من الأحاديث. والألغاز، والدوبيت، والاقتباسات.

وبذلك يمثل هذا الديوان الكلمة الشاعرة لابن حجر العسقلاني، كلمة الروح والعاطفة محوطة بإطار من أسوار العقل والدين.

وهو في كل ما قاله واحد من شعراء عصره، فلم يكن لتخطئه سمات ذلك العصر الذي ظهر فيه. ومع ذلك يطالعنا من شعره الطرائف والفرائد، وهو في معظمه حسن الأداء، بعيد عن التكلف، تختلط فيه الرقة والسهولة، بالفخامة المطمئنة لا تعدم فيه سمات هذا الشعب وهو إلى اللون المكتسب أقرب منه إلى الطبيعة الأصيلة.

٣ ـ التشبيه في شعر شيخ الإسلام:

الأصل في فن التشبيه أنه لون من المحاكاة في صور الشاعر للطبيعة عن طريق البحث لما يريد التعبير عنه من المعاني عن معادل أو موازن حسي من الطبيعة أو البيئة المدركة بالحس. يستطيع به الشاعر أو الأديب أن ينقل ما يريد إلى مخاطبة نقلاً يحمل إليه خلجات الضمير، وأحاسيس المشاعر، ونبضات القلب وما يهفو إليه الوجدان وما يتأمله الفكر.

لذا كان التشبيه غرضاً من أغراض الشعر، بل هو أقدر أساليب البيان على التعبير وأصرحها وأبينها فهو وسيلة كل متكلم، وريشة كل مصور ولسنا بصدد الحديث البلاغي عنه، لكن ندلل على ذلك من كلام ابن حجر لنقرب ذلك إلى ذهن القارىء.

وإذا كان من أول أغراض شعره وأعذبه ما قيل في حضرة حبيبنا رسول الله ﷺ، فإنك لا محالة مشاهد هذه الصور التشبيهية لحضرة المصطفى ﷺ.

إنه النبي صاحب الرحمة العامة، والمعجزات التامة، ونلاحظ أنه يذكر كثيراً من معجزاته لا سيما الإسراء والمعراج، وكثيراً من سجاياه خصوصاً الكرم والشجاعة، وما خص به وفضل. فهو ﷺ:

كالشمس ضاءت للآنام وأشرقت
إلا عن المكفوف والمحجوب

ويقول:

محمد صفوة الله الذي انكسفت
إذ جاء بالحق شمس الكفر وانكشفا
المصطفى المرتقى الأفلال معجزة
وكان في الحرب بالأملاك مرتدفا
الليث والغيث في يومي ندى وردي
والصادق الفعل في يومي وغى ووفا
الواهب الهازم الآلاف من كرم
وسطوة للعدى والصحب قد عرفا

فـالغيـث مـن جـوده فـي الجـدب مغتـرفـاً
كـالليـث مـن بـأسـه فـي الحـرب معتـرفـا

وفي قصيدة تحدث شيخ الإسلام عن الصحابة والعشرة المبشرين بالجنة ذاكراً أسماءهم وأشاد بالمهاجرين والأنصار:

وجــوه أصحــابــه كــالــدر مشــرقــة
إذا مـا رأيـت امـرأ عـن هـديهـم صـدفـا

نـــالـــوا السيـــادة فـــي دنيـــا وآخـــرة
والسبــق والفضــل والتقــديــم والشــرفــا

وبــالــرضــى خــص منهــم عشــرة زهــر
يــا ويــح مــن فــي مــوالاة لهــم وقفــا
سعـــد سعيـــد زبيـــر طلحـــة وأبـــو
عبيـــدة وابـــن عـــوف قبلـــه الخلفـــا

وهنا شبه وجوههم بالدرر في الإشراق، يقصد إشراق الهداية التي نالوا بها السيادة في الدنيا والآخرة. وفي قصيدة من النبويات، يقول مخاطباً رسول الله ﷺ:

صلـــى عليـــك وسلـــم الله الـــذي
أحيـــا بـــك الإيمـــان والتـــوحيـــدا

والآل مـــا هـــب النسيـــم فحـــل مـــن
أزرار أزهـــار الـــربـــا المعقـــودا

وعلى صحابتك الذين سموا علا
وهدى وآباء رقوا وجدودا
من معشر كانوا الأئمة للورى
فاقوا البرية سَيِّداً ومَسُودَا
فإذا سخوا كانوا البحار وإن سَطُوا
كانُوا الأسُودَ أو الشَّراةَ الصيِّدَا

وهنا أيضاً دل على أنهم الأئمة للخلق ذلك لتفوقهم، وسموهم وبرهم وشجاعتهم. ومن بدائعه البيت الثاني هنا حيث صور النسيم عابثاً بيديه ليحل أزرار الأزهار المعقودة فيفتق أكمامها فتبعث أريجها، وتعطر الكون بشذاها وهذا من ابتكاراته التي تتجلى فيها قدرته على التخيل، وكثيراً ما يتخذ من المبالغة والتورية وحسن التعليل وسائل ومواد لبناء تلك الصور التشبيهية والاستعارية عنده.

٤ ـ من المعاني التي كررها في قصائده:

ونجد لشيخ الإسلام رحمه الله معاني كثيرة كررها في قصائده مثل: لوم العواذل، وصدود الأحبة، وشوقه وآلامه. فتارة يظهر قدرته على تحمله فيجعل ملامهم كالحبل المبرم وصبره ناقض له وهي صورة منتزعة من القرآن الكريم:

إن أبرموني بالملام فإن لي صبراً
سينقض كلما قد أبرموا

صورة فيها جدة وطرافة حيث جعل لومهم إبراماً له وفي ذلك ما

ينبيء عن شدة لومهم، وجعل قوة تحمله كالناقض لهذا الفتل القوي، ونقض الغزل من بعد قوة غزله مما عبر عنه القرآن الكريم حيث قال الحق سبحانه: ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا** ﴾[1]،

وفي تشبيه الشاعر نسب إلى الآية الكريمة إلا أن النقض في الآية الكريمة دليل بله، وعلامة على فقدان العقل، عكس الشاعر ذلك فكان النقض عنده دليل قوة محمودة لا ضعف عزيمة وخور.

ذلك الصبر الذي ينقض حبال العذول المبرمة تجده أضعف ما يكون أو لا وجود له ذلك عندما يرحل الحبيب.

فيـــا خليلـــي هـــذا الـــربـــع لاح لنـــا
يـــدعـــو الـــوقـــوف عليـــه والبكـــا فقفـــا
ربـــع كـــربـــع اصطبـــاري بعـــد أن رحلـــوا
تجـــاوز الله عنـــــه قـــد خـــلا وعفـــــا

ذلك ربع خال كقلبي الخالي من الصبر بعد رحيلهم، ثم لم ينس دينه في هذا فدعى الله بالعفو والتجاوز عنه.

ولا عجب فهو الذي ذاب حباً وتيم وجداً، ولقد شكى في كل قصيدة هواه وبكى واستبكى لقد برح في الحب، وأسقمه الوجد، لقد عذبه الصد وأضناه، وأسهره وأرقه حتى صار جسمه كالنسيم، ودمعه كالبحر وعبثت به يد الأسقام.

---

(١) سورة النحل آية: ٩١.

يقول:

جسمـــي أخـــف مـــن النسيـــم نحـــافـــة
وثقلـــت بـــالسقـــم المبـــرح منكـــم

وأيضاً:

إن رحـــت تســـأل عـــن خـــلالـــي
فـــي الحـــب جسمـــي كـــالخـــلال

وقوله:

جسمـــي أخـــف مـــن الـــريـــح العليلـــة مـــع
أنـــي ثقلـــت بضعـــف كـــاد يقتلنـــي

لاحظ في البيت الأول ذكر لفظ النسيم فهو الذي يوحي بالرقة واللطف، ولما كان لفظ الريح لا يسعفه بذلك في البيت الثالث قيدها بوصف العليلة، أما تشبيه جسمه بالخلال فهذا دل على دقته ونحافته، إن أثر الصنعة عليه باد، ذلك لمحاولته تصريع الشطر الأول.

ثم إنك ترى المقابلة الحسنة توضح علة ما تريد السؤال عنه، إذا خف جسمه هكذا فلم ثقل؟ فأجابك بأن سبب ذلك هو السقم الذي برح به، والضعف الذي كاد يقتله.

وعـــدت لا أختشـــي فـــي الـــدهـــر مـــن سقـــم
إذ ليـــس يـــدرك جسمـــي نـــاظـــر الـــزمـــن

وإذا كان جسمه كالنسيم والريح العليلة، فمن الأحسن أن يكون سلامه كذلك.

سلام كأنفاس الرياض بسحرة
سرت في رياض منهم ورحاب

ما أندى وأبل نسيم الرياض، وما أروى السلام على الأحباب لذا فلا عجب أن شبه به ولا غرابة أن جعل تحية المسلمين، وكلام أهل الجنة، والسلام على من اتبع الهدى.

وأظن أن شاعراً يجعل من أحبابه روضة، ومن وجناتهم وردها، ومن قدودهم أغصانها، ومن ألحاظهم سحرها، ومن حضورهم طلعة البدور، ومن غيابهم خسوف الأقمار، ومن نظراتهم سهاماً جارحة تارة وحنيناً مشوقاً أخرى حتى بلغ الهوى به أن:

يستنشق الريح من تلقائهم فإذا
هبت شمال غلا في عشقه وصبا

حتى ولو قيل له تبدل من هواهم لغيرهم فالجواب:

وقالوا تبدل من هواهم بغيرهم
فقلت لهم هل ينطفي الجمر بالجمر

حتى وإن رحلوا فهم حاضرون في قلبه:
وما في ضميري غيركم مذ فقدتكم
فحذفكم عن مقلتي حذف إضماري

أي هم غيب حضور فأعجب لغائب حاضر. وتأمل قوله: «وما في ضميري غيركم مذ فقدتكم». فهذا غياب في الظاهر وشهود في الباطن

«الضمير». وهل هناك صورة في الواقع مثل هذه الصورة؟ إنها صورة حذف الإضمار فلا يقال له حذف وإنما يقال له إضمار فهو وإن لم ينطق به لفظاً فهو موجود مضمر. لذا كان التشبيه دقيقاً.

وأنتم مني روحي وهدى وبصيرتي
وتنوير أبصاري وتيسير إعساري

وكذا الروح لا ترى وإنما بها الحياة، وهدى البصيرة، وهداية البصر، وتيسير العسر، كل ذلك لا يرى وإنما دل على نفسه دلالة أقوى من المحس الظاهر لأن هذه موارد الإحساس وبها الحياة. أما محبوبة ذلك الذي لا يرى وإنما دل على نفسه دلالة أقوى من الحس الظاهر لأن هذه موارد الإحساس وبها الحياة. أما محبوبة ذلك الذي لم يسمع فيه قول الوشاة ولا كلام العواذل فقد أظهره لنا روضة فيها غصنها، وورداها:

كالبدر لكن بلا نقص ولا كلف
في الحسن والسن والإشراق والسنن

فقوله «لكن» احترس لتشبيهه وباحتراسه أظهر محبوبه أجمل من البدر فقال بلا نقص. . . إلخ، وإن كنا نقول إنه عند التشبيه بالبدر فإن معنى الجمال هو أولى أوصافه فالشاعر هنا جمع كل ما به البدر بدراً حتى إن محبوبه ذلك ليجمع المحاسن أحلاها فأحلاها، لذلك ضمن به وغار عليه حتى لا تنهبه عيون الناس:

أخشى عليه عيون الناس تنهبه
إذا بدا طالعاً والشمس في قرن

أما قامته ولحظه فتارة يقول فيها:

تهتــز كــالسيــزنــي اللــدن قــامتــه
وإنمــا لحظــه سيــف ابــن ذي يــزن

فضمن الجمال والدلال والمهابة والجلال، ولما خاف أن يكون من السيزن أعواد جافة أتى بكلمة (اللدن)، ولما كان بعض السيوف ينبو عن ضريبته جعل لحظه كسيف ابن ذي يزن ذلك المشهور بالبطولة. وذلك لقوة تأثير النظر وذلك من أقوى ما يمتدح به وأجمل صور الغزل. أما الوجه فهو منير مشرق.

ولــم أتنســك خــوف واش وأعتكــف
ووجهــك قنـديلـي وصـدغـك محـرابـي

وهذا أجمل ما تنصل به، وإن كانت لغة الفقهاء بادية عليه.

أما لون الخد ونشر الحبيب فهو كما قال:

فخــداه تفــاح وعينــاه نــرجســي
وعــارضــه مسكــي وريقتــه خمــري

ويقول:

ومهفهــف فــي عــارضيــه جنــة
نبتــت علــى نيــران صفحــة خــده
لمــا رأى الألحــاظ تــرشــق خــده
جــاء العــذار مقــدراً فــي ســرده

لاحظ حمرة التفاح وطيب رائحته وحسن مذاقه (طعمه طيب وريحه -

طيب) والنرجس في كمال شكله، والمسك في طيب رائحته، والخمر في نشوة سكره لذا أجاد الشاعر، لأمرين:

الأول: أنه اختار المشبه به جرياً على سنن العرب فهو الأصل.

ثانياً: صاغ تشبيهاته صياغة بليغة فلم يأت بأداة التشبيه مع إضافة المشبه به إلى ضميره.

أما التصوير في البيتين الآخرين فإنما يرجع كماله وجماله إلى حسن التعليل فيه، فتلك الجنة التي نبتت على نيران صفحة الخد تسبي العيون وتقيد الأنظار فكان لا بد من مجن تتقي به سهام النظر التي ترشق هذا الجمال، لذا كان العذار محكم السرد جيد الصنع، وذلك مأخوذ من قوله تعالى ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم** ﴾[1] ويظهر أن للعذار صولة وفيه تفتن لفت الأنظار إليه فتبارى الشعراء في وصفه ومنهم شاعرنا.

ويدير ذلك المعنى فيمدح عزيز مصر قائلاً:

بوجهه تم الجمال فلا يقولوا البدر تما
أولم تروا في خده إذا فاقه للحزن كدما
والنيل يلطم وجهه حسداً بكف الموج لطما

ولقد أشاد بصفات المعالي، وأخلاق الإسلام: كالحلم، والصدق، والشجاعة، وكان التشبيه أداته المفضلة.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٨٠.

فهو يقول في وزير صاحب اليمن:

إلى الأوحد القاضي الأجل ومن له
ثناء يَفوق المسك إذ يتضرع
وفيه مع القدر العلي تواضع
وفيه عن الفعل الدني ترفع
وذو همة تفري السيوف وإنها
لأمضى من السيف اليماني وأقطع
وحلم حكاه الطود والطود شامخ
يعز لديه المستجير ويمنع

فمدحه بأنه الأوحد المثنى عليه، صاحب القدر العلي، المتواضع، والمترفع عن دنيء الأفعال، صاحب الهمة الشجاعة والحلم الثابت.

وإذا كان المسك سيد المطيوبات في بابه فلقد شبهه به في ساعة تضوعه وهو أكثر انتشاراً وأشد عبقاً، والجبال يضرب بها المثل في الثبات والاحتماء بها لذا شبه ممدوحه في ثبات حلمه، وفي الاحتماء به والمنعة بها ـ بل قلب الأمر فجعل الجبل هو المشبه والحلم (حلم ممدوحه) مشبه به.

واستعان بأسلوب المطابقة ليثبت له التواضع مع علو القدر، والترفع عن الفعل الدني، وكثيراً ما استعملت تلك التشبيهات، لكنه أضفى عليها شيئاً من الجدة والطرافة، فقد جعل الثناء يفوق المسك إذ يتضرع، ولم يقل همة كالسيف ولكن جعلها تفري السيوف، بل

أمضاها وأقطعها وهو السيف اليماني، ودل على قدم صفة الحلم فيه وأصالتها بقوله «حكاة الطود» وكأنها صفة تأصل الجبال وثابتة ثباتها.

ويقول في مدح رسول الله ﷺ:

وسقى الطغاة كؤوس حتف عجلت
للمؤمنين ذهاب غيظ قلوب

والجمال في قوله «سقى كئوس حتف».. حيث جعل الموت شراباً يسقى في كأس للطغاة لقد أوهم القارىء بقوله «سقي» فلما قال «الطغاة» عجلت السقي بالمسقي «كئوس حتف» إنه الهلاك العاجل، ليذهب غيظ قلوب المؤمنين. والتعبير بكلمة «سقي» يوحي بالإساغة، وتدل كلمة الطغاة على علة الفعل وأنهم السبب. أما كلمة كؤوس حتف فتدل على شدة وقع ذلك عليهم واستئصالهم.

ومن استعاراته القريبة قوله:

لبست ثياب الليل حزناً على اللقا
وصرت لنيل الدمع أية جرار

وثياب الليل ظلمته، والمراد أنه غطاه الحزن وعمه.

٥ ـ قال يمدح النبي ﷺ ويذكر ختم السنن لأبي داود:

يا سعد لو كنت امرأ مسعوداً
ما كان صبري في النَّوى مفقودا
وسهرت ارتقب النجوم كأنني
في الأفق أطلب للحبيب عهودا

وأعـــــد أيـــــام الجفـــــاء معـــــدداً
حتـــى مللــت الحـــزن والتعـــديـــدا
قـــولـــوا لمـــن ملـــك الفـــؤاد بـــأســـره
فغـــدا بقيـــد غـــرامـــه مصفـــودا
هـــلا مننـــت علـــى أسيـــرك بـــاللقـــا
لينـــال فـــي دار الـــوصـــال خلـــودا
وبثغـــرك المـــاء الـــزلال فمـــالـــه
مـــا كـــان للظـــامـــي بـــه مـــورودا
وأســـرتـــه وحجبـــت عنـــه فيـــا لـــه
وهـــو الشقـــي مقـــربـــاً مطـــرودا
أهـــوى الـــذي أقسمـــت أنـــي لا أعـــي
فـــي حبـــه لـــومـــاً ولا تفنيـــدا

هذا القسم من القصيدة يبين الشكوى من الحبيب الذي ملك فؤاده واستحلى تعذيبه، وهو لا صبر له على الفراق، فإلى متى يصل الوفاء الغادر؟ فليكن الصوم عن الغرام ومدح رسول الله ﷺ، صاحب المعجزات: الإسراء، ولواء الحمد، والشفاعة، فلتكن ضراعته إلى الله حتى ينال الخلد ويحظى بالقرب، فصلوات الله وتسليماته عليك أيها النبي ﷺ وصحابتك الكرام والتابعين بإحسان أولئك الذين حفظوا الشريعة وجمعوا السنن. البخاري، ومسلم، وأبو داود ذلك الذي بذل الجهد وأحسن العمل فرضي الله عنه.

يـــا سيـــد الـــرســـل الـــذي فـــاق الـــورى
بـــأســـاً سمـــا كـــل الـــوجـــود وجـــودا

يـــرجـــو بـــه المحيـــا السعيـــد وبعثـــه
بعـــد الممـــات إلـــى النعيـــم شهيـــدا

صلـــــى عليـــــك وسلـــــم الله الـــــذي
أحيـــا بـــك الإيمـــان والتـــوحيـــدا

والآل مـــا هـــب النسيـــم فحـــل مـــن
أزرار أزهـــار الـــربـــا المعقـــودا

وعلـــى صحـــابتـــك الـــذيـــن سمـــوا عـــلاً
وهُـــدىً وإبـــاءٍ تـــرقـــوا وجـــدودا

مـــن معشـــرٍ كـــانـــوا الأئمـــة للـــورى
فـــاقـــوا البـــريـــة سيـــداً ومســـودا

فـــإذا سخـــوا كـــانـــوا البحـــار وإن سطـــوا
كـــانـــوا الأســـود أو الشـــراة الصيـــدا

مـــا طـــوقـــت مـــداحهـــم بحـــلاهـــم
فـــلأجـــل ذلـــك لازمـــوا التغـــريـــدا

وعلـــى الأولـــى تبعـــوا بـــإحســـانٍ ومـــن
حفـــظ الشـــريعـــة شـــاهـــداً مشهـــودا

مثـــل البخـــاري، ثـــمَّ مـــسلـــم الـــذي
يتلـــوه فـــي العليـــا أبـــو داودا

فـــاق التصـــانيـــف الكبـــار بجمعـــه الـ
أحكـــام فيهـــا يبـــذل المجهـــودا

قـد كـان أقـوى مـا رأى فـي بـابـه
يـأتـي بـه ويجـرر التجـويـدا
فجـزاه عنـا الله أفضـل مـا جـزى
مـن فـي الـديـانـة أبطـل التـرديـدا
ثـم الصـلاة علـى النبـي وآلـه
أبـداً إلـى يـوم الجـزاء أبيـدا

٦ - بين ديوان شيخ الإسلام، وديوان من «نبع القرآن» لشاعر الإسلام:

حينما نستهل كلامنا عن شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله، وديوانه الوحيد الذي وصل إلينا بحول الله سالماً غانماً، ونقارنه بديوان شاعر الإسلام محمد[١] رجب البيومي. نجد أن شيخ الإسلام اتّسم ديوانه بتوسط الجودة، ورقّة اللفظ، وسهولة المؤونة، لم تثقله مصطلحات عملية ولم تشبه كلمات فقهية، فلقد استعمل استعارات وضمن من القرآن الكريم والحديث الشريف، وجاء شعره متكلفاً أحياناً، وفي الألغاز خصوصاً، ولكن عمل المشبه به في شعر شيخ الإسلام حمامة السلام والمترجم عن المعنى الخفي الذي يقوم بمهمة التفسير والتعليل لما جاء بالمشبه به من غموض، ونجد أن المعنى في أبيات ديوان شيخ

(١) محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقاً، وأستاذ متفرغ بقسم الأدب والنقد، ولد بالمنصورة سنة (١٩٢٣ م - ١٣٤٤ هـ). مقرر لجنة الأدب والبلاغة بالأزهر وديوانه من «نبع القرآن» فيض من الوحي القرآني.

الإسلام قد احترمت ذهن القارىء، وفكره، ولم تستخف بخياله ـ فقال:

يـــا سيـــداً طـــالعـــه إن
راق معنـــــاه فعـــــد
وافتـــح لـــه بـــاب الـــرضـــا
وإن تجـــد عيبـــاً فســـد

وحينما نعود إلى شاعر الإسلام نجده لم يكرر نفسه في صورة واحدة، وحين تفطره الأمور إلى تصوير موضوع سبق أن تناوله وعالجه، فلا يكرر الصورة، بل يجدد في طريقة أدائها، ويلوّن في عناصر تشكيلها. فالموضوع واحد والصورة تتبدل وتتغير لتنم عن روح الشاعر الفنان الخلّاق.

قال:

وقضـــى السيـــد الكـــريـــم فـــلا تســـأ
ل عـــن الحـــزن حيـــن يغشـــى الســـوادا
روّع المعنفـــون حيـــن هـــم الكثـــر
ة إذ كـــان غيـــرهـــم آحـــادا
ردعـــوا بـــالغمـــام يعتـــزل
الـــزرع وبـــالجـــدب يستضيـــم البـــلادا
ومضـــى بـــالتفـــاؤل الحلـــو قـــوم
فـــرأوا فـــي نـــدى بنيـــه عمـــادا

ومن خلال هذه الأبيات نجد أن شاعر الإسلام يستخدم كلماته استخداماً جديداً، وينمي العلاقة بين الواقع القرآني والواقع الإنساني، ويدرك العلاقة بين أشياء مختلفة لم تكن بينها علاقة من قبل فيتخطى العلاقات المألوفة لينتج علاقات مبتكرة، ويتعدى التعبير المباشر إلى غير المباشر، فتتنوع أدوات تصويره.

الفهرس